منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2520) السنة التاسعة - الاربعاء (27) حزيران 2012

روجيه غارودي
قرن من الفلسفة

مع زوجته سلمى الفاروقي

غـــارودي يطـــوي آخـــر صفحـاتـه

منال ناصر

طوى "إمام مشاغبي العصر"، كما وصفه بعضهم، والفيلسوف والكاتب الفرنسي روجيه غارودي أو "رجاء"، كما سمى نفسه بعد اعتناقه الإسلام، طوى الصفحة الثامنة والتسعين من كتاب حياته، ومضى مخلفاً وراءه الكثير من المؤلفات المتنوعة، وعدداً من المواقف المؤثرة والمثيرة للجدل التي تشهد لفرادة هذا الرجل.

من رفضه الاجتياح الإسرائيلي للبنان في ١٩٨٢ إلى تشكيكه بالهولكوست، ظل غارودي يحارب الصهيونية، ولم ترهبه هجمات الإعلام الغربي وانتقاداته، ولم تثنه الإجراءات المتخذة في حقه عن إصراره في تحطيم الأصنام والأساطير والأغلال التي يرزح تحتها العالم.

بعد مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان، أصدر غارودي بياناً احتل الصفحة الثانية عشرة من إصدار ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ من جريدة لوموند الفرنسية، بعنوان "معنى العدوان الإسرائيلي بعد مجازر لبنان". ووقع البيان مع غارودي كل من الأب ميشال لولون والقس إيتان ماتيو. وشكّل هذا البيان بداية صدام غارودي مع المنظمات الصهيونية التي شنت حملة ضده في فرنسا والعالم.

في ٢ تموز/ يوليو ١٩٨٢، أشهر غارودي إسلامه في المركز الإسلامي في جنيف مغيراً إسمه إلى رجاء، ومحدثاً ضجة كبيرة في الغرب. وكان لإسلامه قصة... سردها بنفسه لإحدى الصحف الجزائرية.

يقول غارودي "الرصيد الأبرز في حياتي والذي صاغ وجداني وهيأني للدخول إلى الإسلام بدأ يتشكل في الجزائر (معسكر عين أسرار – الجلفة). فلقد عشت في بداية الحرب العالمية الثانية تجربة فريدة من نوعها؛ لأن قوات الاحتلال الألماني قبضت على المجموعة الأولى للمقاومة الفرنسية حين سقطت باريس. وصدر الأمر بنقلها إلى معسكر الجلفة. وكنت أحد أفراد تلك المجموعة، فدعوت رفاقي إلى تمرد في السجن، وفي اذار/مارس من ١٩٤١، دعوت حوالى خمسمئة منهم إلى التظاهر لتأكيد اعتراضنا على السياسة النازية. وبعد ثلاثة إنذارات من قائد المعسكر، أصدر أوامره إلى الجنود بإطلاق النار علينا. فوجئنا برفض الجنود تنفيذ الأوامر حتى بعد تهديدهم بالسياط. ولم أفهم للوهلة الأولى سبب رفضهم، ثم عرفت أن هؤلاء الجنود كانوا من الجزائريين المسلمين، الذين يرون أن شرف المحارب المسلم وأخلاقه تقتضي ألا يطلق النار على إنسان أعزل". ويتابع "كانت الصدمة الأولى التي زلزلت حياتي، ويومها عرفت أن الإسلام هو الذي أنقذ حياتي، وأنا عمري ٢٨ عاماً وظل بداخلي حتى اعتنقت الإسلام في ١٩٨٢.

ويضيف غارودي: "صوروا لنا المسلم على أنه متوحش همجي، فإذا بي أمام منظومة قيم متكاملة لها اعتبارها. وعلمني هذا الموقف، واستفدت منه أكثر من استفادتي من عشر سنوات في السوربون"

وفي أحدى مؤلفاته يقول غارودي "إن اعتناقي الإسلام لم يكن شيئاً من قبيل التجربة، ولكنه كان شيئاً كالإنجازات الكبرى في حياة الإنسان".

وفي حديث آخر يقول غارودي "نعم لقد وجدت في الاسلام مبتغاي ومقصدي، ففي الإسلام تجد العلاقة بين الله الخالق وبين المخلوق الإنسان علاقة مباشرة بلا وسيط بينهما".

وفي كتابه "الإسلام دين المستقبل"، يقول غارودي عن شمولية الإسلام: "أظهر الإسلام شمولية كبرى عن استيعابه لسائر الشعوب ذات الديانات المختلفة، فقد كان أكثر الأديان شمولية في استقباله للناس الذين يؤمنون بالتوحيد وكان في قبوله لاتباع هذه الديانات في داره منفتحا على ثقافاتهم وحضاراتهم والمثير للدهشة انه في اطار توجهات الإسلام استطاع العرب آنذاك ليس فقط إعطاء إمكانية تعايش نماذج لهذه الحضارات. بل أيضا إعطاء زخم قوي للايمان الجديد: الإسلام. فقد تمكن المسلمون في ذلك الوقت من تقبل معظم الحضارات والثقافات الكبرى في الشرق وأفريقيا والغرب وكانت هذه قوة كبيرة وعظيمة له، وأعتقد ان هذا الانفتاح هو

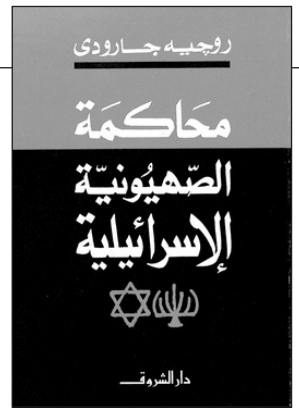

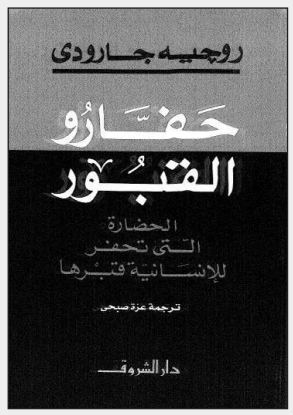

السيرة الذاتية

ولد الفيلسوف الفرنسي في ١٧ تموز/يوليو ١٩١٣ في مرسيليا من عائلة بروتستانتية، لأب يعمل في مجال المحاسبة.

اعتنق غارودي الكاثوليكية أولاً، وكان عضواً في الحوار المسيحي – الشيوعي في ستينات القرن العشرين، فوجد نفسه منجذباً إلى الدين، وحاول أن يجمع الكاثوليكية مع الشيوعية خلال السبعينات. وبدأ يميل ويقترب إلى الإسلام في تلك الفترة حتى اعتنقه في الثمانينات.

في ١٩٣٣، انضم غارودي، المجاز في الفلسفة والدكتور في الآداب، الى الحزب الشيوعي.

في ١٩٤٠، سجن ثلاثين شهراً، بعدما أخذ كأسير حرب لفرنسا الفيشية في معسكر بالجزائر.

صدرت أولى مؤلفاته في ١٩٤٦.

حصل غارودي على درجة الدكتوراه الأولى في ١٩٥٣، من جامعة السوربون عن النظرية المادية في المعرفة، ثم حصل على درجة الدكتوراه الثانية عن الحرية عام ١٩٥٤ من موسكو.

انتخب غارودي نائبا في ١٩٥٤، بعدما خسر في ١٩٥١، وأعيد انتخابه في الجمعية الوطنية (١٩٥٦ – ١٩٥٨) ثم في مجلس الشيوخ (١٩٥٩ – ١٩٦٢).

تولى تدريس الفلسفة في مدرسة الليسيه، في ألبي والجزائر العاصمة وباريس (١٩٥٨ – ١٩٥٩)، ثم اصبح محاضراً فأستاذاً اصيلاً في الجامعة.

نال جائزة الملك فيصل العالمية في ١٩٨٥ عن خدمة الإسلام وذلك عن كتابيه "وعود الإسلام"، Promesses de lIslam، و"الإسلام يسكن مستقبلنا"، LIslam habite notre avenir، ولدفاعه عن القضية الفلسطينية.

حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة قونيا في تركيا سنة ١٩٩٥. ومن مؤلفاته:

- المسجد مرآة الإسلام (Mosquée، miroir de lIslam).
- جولتي وحيدًا حول هذا القرن (Mon tour du siècle en solitaire)
- فلسطين مهد الرسالات السماوية (Palestine، terre des messages divins).
- "الولايات المتحدة طليعة التدهور" ١٩٩٧
- الإرهاب الغربي ٢٠٠٤.

توفي غارودي في ١٥ حزيران/ يونيو ٢٠١٢، عن عمر ٩٨ عاماً.

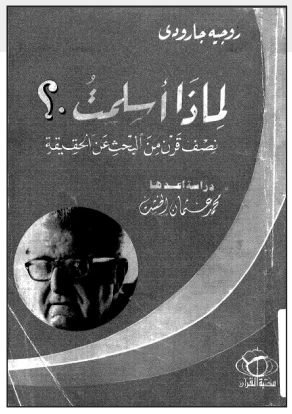

الذي جعل الإسلام قويا ومنيعاً".

لكن غارودي لم ينكر مطلقاً مدى تأثير الفكر الماركسي على حياته، حيث كان غارودي في ثلاثينات القرن العشرين منضوياً تحت لواء الحزب الشيوعي الفرنسي. وفي ١٩٤٥، انضم الى اللجنة المركزية للحزب. وفي ١٩٥٦، الى المكتب السياسي. وفي ١٩٧٠، طُرد من الحزب الشيوعي لتوجيهه باستمرار انتقاداته للاتحاد السوفياتي. وفي السنة ذاتها، أسس مركز الدراسات والبحوث الماركسية وبقي مديراً له مدة عشر سنوات.

وكانت صحيفة "لومانيتيه" الشيوعية الفرنسية، أشادت بغارودي الذي "اضطلع، في نظر عدد كبير من المفكرين الشيوعيين في الحقبة الستالينية، بدور الفيلسوف الرسمي الذي لا يمكن تصوره اليوم للحزب الشيوعي الفرنسي".

وعن تلك الحقبة يقول "لا أنكر أن الماركسية شكلت فكري وصاغت وجداني في المرحلة الأولى من حياتي، في وقت كنت أؤمن بالمسيح الذي يمثل عندي قمة الطهر. وإيماني بالمسيح (ع)، كان دافعاً قوياً لإقبالي على الاسلام بعد ٤٠ عاماً من تديني المسيحي وفكري الماركسي. وذلك، لأن الإسلام إحترم المسيح (ع)، وهو الدين الأكثر تفتحاً، بينما رفضته الديانة اليهودية، كما رفض المسيحيون الاعتراف بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم".

في ١٩٩٨، حكمت محكمة فرنسية على غارودي بتهمة التشكيك في محرقة اليهود (الهولوكوست) في كتابه "الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل"، حيث شكك في الأرقام الشائعة حول إبادة يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازيين.

عن الحياة اللندنية

روجيه غـــارودي: مـن أكـــون في اعتقادكم؟

روجيه غارودي المفكر والفيلسوف الفرنسي المولود في فرنسا سنة ١٩١٣ أشهر من أن يعّرف إلى عالمنا العربي، خاصة بعد أن أشهر إسلامه سنة ١٩٨٢ وأصبح يُعرف بإسم « رجاء غارودي». عاش عمراً طويلاً ينّظر للاشتراكية والماركسية قبل أن يعتنق الاسلام،

وهو خصم عنيد لاسرائيل ويرى أن ادعاء اليهود حدوث محرقة تعرضوا لها خلال الحرب العالمية الثانية شملت ستة ملايين يهودي أمر مبالغ فيه جداً وهو الأمر الذي أكّده في كتبه التي زادت على الخمسين كتاباً واضطره ذلك إلى مواجهة المحكمة الفرنسية سنة ١٩٨٨ بدعوى معاداته للسامية، وحكم عليه بغرامة مالية قدرها ٥٠ ألف دولار.

كريم السماوي

ومن أطرف ما يذكره رجاء غارودي كيفية نجاته من الموت حين أسر من قبل النازيين في الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية في الفترة ما بين ١٩٤٠- ١٩٤٣، فقد قضت الأوامر باطلاق النار عليه وهو في المعتقل غير أن الحراس الجزائريين رفضوا تنفيذ الأوامر وذلك لإيمانهم بأن ليس من شرف المحارب أن يطلق الرجل المسلح النار على أعزل.

وفي روايته « مَنْ أكون في اعتقادكم » يتحدث غارودي عن الجيل الضائع بعد الحرب لذا يقول:« إن بطلي الرئيسي ينتمي إلى جيل يبهرني.. الجيل الذي ولد منتصف القرن تماماً، وقد بلغ الثامنة عشرة سنة ١٩٦٨، وسيبلغ الخمسين سنة ٢٠٠٠، ولقد عرف المخدرات واشترك في العصابات وسلك طريق « كاتماندو» وعانى أحلام تشي غيفارا، وكذلك قلق العصر النووي.

لقد بدأ كلّ شيء مبكراً جداً.. ربما وأنا في السادسة من عمري. إنّ صورة العنف الأولى، الساذجة جداً، التي لا تزال تلاحقني مع ذلك هي صورة لبلابة وردية وبيضاء.. كانت اللبلابة تومئ إليّ، كانت تبتسم لي بعذوبة مداعبة وكنت أجيبها ببسمة. بالاختصار، بداية حياتي.. زهاء عشرين عاماً من السأم والتمرد.

لم يكن بي جوع للحياة بعد إلا جوع الانتقام. كنا نسرق، وللمرة الأولى في حياتي أحسست أني سعيد مع العصابة، حس المشاركة، كانت السرقة كل يوم هي المأثرة، التجديد، المخاطرة، والانحراف كما يقولون. وكانت في نظري نقيض المدرسة والأسرة والجيش ونظام العمل المسلسل.. كانت هي الحرية..!

ويعيش بطل الرواية مع رفاقه وفي مقدمتهم صديقته بالونا وعددهم جميعاً سبعة، وهم العملاق واثنان من أصغر الشبان وبالونا والحطابان وهو، يعيش لحظات مطاردة شرسة من قبل الميليشيا والجيش وسط الغابة حيث يقوم الحطابان ان بفتح ثغرات عبر الادغال لم يسبق لقدم إنسان أن وطئتها.

ويقول العملاق مشجعاً رفاقه: إن أخطر الاعداء هو الخوف. والأمر الجوهري هو ألا ننتظر المسيح.. إن البشر لا يموتون حقاً إلا إذا فقدوا مبرراتهم في الحياة، وهذا وحده ما يجعلني أعيش بعد.

ألف من رجال الميليشيا والجيش يقتفون أثر السبعة في مضيق حول شلال بأسفل الجبل، يطاردون ستة من الرجال وامرأة نهشهم الجوع الحقيقي، والغاية أن يصلوا أعلى القمة التالية لتحديد طريقهم في الهرب.. إثنان منهما تزل قدم أحدهما فيسحب الثاني معه نحو القاع ويبقى خمسة، امرأة وأربعة رجال. ولكن المطاردة تنتهي بمقتل العملاق وأسر الآخرين حيث يأمر القائد بتجريد بالونا من ملابسها واباحتها لجنده ثم يقوم باغتصابها هو قبل أن يقتلها.يُعزل بطل الرواية في مشفى للأمراض النفسية بانتظار تسليمه لبلده بعد مفاوضات ومساومات،

وهناك في بلده ينقل إلى جزيرة معزولة فيها مفاعل نووي يواجَه بمعارضة قوية لبنائه.. تمرد في الجزيرة.. اضطرابات.. حريق.. جنون القتل.. ثورة.. قادة الثورة.. ودم ولهيب. وسط صيحات: الطاقة الذرية المركزة تقودنا إلى نظام بوليسي.... «سنقرأ عليك الحكم الذي سيبرئك. » ويرد عليهم: هل يناسبكم جميعاً أن أكون مجنوناً وألاّ أكون قد ارتكبت أية جريمة. وألاّ يكون ما تسمونه اعترافاتي إلا تخيلات وخزعبلات خادعة.؟!!..

لم يكن باقياً لي بعد إلا أن أموت أمام نفسي، أمام مشاريعي، أمام قدري. أما قائد الشرطة فكان قد أفضى بي إلى قاع اليأس، حتى الجنون. عليَّ أن أكون ما كان هذا الشعب ينتظره مني، كان بحاجة وهو في تلك المرحلة من كفاحه إلى بطل، إلى نبي، ولم يكن شيء قد أعدني لهذه المهمة. لقد كان كافياً بمناسبة محاكمة مبتذلة أن يطرح رجل هو مع ذلك قاتل سؤال « اللماذا » حتى ينهار عالم لا هدف له..

وردا على العصيان والثورة قامت القاذفات بقصف الجزيرة وأصابت إحدى القذائف المحطة النووية في الصميم، صعد بعدها الدخان لبضعة كيلومترات ثم انتشرت بقعة الفطر السوداء وامتد قطاع الموت على مسافة أربعين كيلومتراً. توقفت الحياة في كل مكان، فيلم من أفلام الرعب الحقيقية. مئات الحرائق، دمروا كل شيء وخمسة وعشرون ألف قتيل في الساعات الأولى وبات الخوف من تفشي الأوبئة مع كل تلك الجثامين والتشوهات، لقد أصبح الجميع على أرض الجزيرة ينتمون إلى هذه الفوضى، غرباء في عالم الأموات.

وتساءل البعض هل سنصّنف منطقة ملوثة مثل ناجازاكي بعد القنبلة. ولكن ليس ثمة من يرغب في إجلاء الناس هناك، بعدها وضع الجميع تحت رحمة الحصار والحجر الصحي بعد أن باتوا وباءً محتملاً.. استمر الحصار لعشرين عاماً. وهناك عاش جيل اللاعودة.

وفي خضم الاحداث هرب من تمكن من الهرب، ومن شدّة الذعر ترك البعض أولادهم أو ماتوا وتركوهم للضياع والتيه، استطاع بطلنا أن يتبنى طفلين ولد سمى نفسه مارك وفتاة لم تعرف اسمها فسماها بالونا إحياءً لذكرى حبيبته وشاهدهما يكبران مع الجزيرة. أحب مارك بالونا الجميلة ولكن هواها كان مع دانيال الموسيقار والرسام ابن الخوري، ظلّ مارك مخلصاً لحبه حتى أنها عندما تعرضت لحادث وهي تراقص دانيال فداها بدمه فعاشت هيً وفقد مارك حياته، وهو الأمر الذي جعلها تصدم لعظمة حب مارك لها ثم عزفت عن علاقتها بدانيال رغم وجود الجنين في أحشائها. وحين ولدت أسمت ابنها « مارك » لأنها عرفت في مارك الحب الكامل والحقيقي ولكن بعد موته.

بلغ بطل الرواية الذي لم يجعل له المؤلف سميا لأنه أراد أن يكون أي واحد منا، بلغ الخمسين، شاخ فيها قبل أوانه وهو يتذكر كيف كان يجب أن يُحكم عليه بالموت قبل عشرين عاماً. ويتذكر الثورة وقد آمن أن الطرق المختصرة تكلف الثورات غاليا، حتى أنه كان يقوم بمشاهدة صوره عبر تلك الفترة لجرد أخطائه ويرى فيها مرآة للأمل المكسور.

وخلال تلك السنوات الطويلة تكّيف البعض مع طبيعة الجزيرة وقام بعضهم باختراعات علمية متطورة كما اكتشف البعض الآخر طرقاً لحل مشكلة المجاعة في العالم وكانوا يودون لو يبادلون هذه الاختراعات والاكتشافات بحريتهم واكتساب حقوقهم ليكونوا أسياد بلدهم غير أن الرد كان إنذاراً أرسلته القارة بالراديو والتقطته ألوف الأجهزة لاحتلال الجزيرة على الرغم من معرفتهم بعدم وجود جيش أو قوة تقاومهم. ارتأى البعض أن يواجهونهم خاصة وأنهم متحدون في وجه التعذيب والجوع والتنكيل والموت:

« فهم يريدون تدميرنا اليوم بعد عشرين عاماً من الحصار لأن وجودنا بات يفضح ضلالهم. »

روجيه غارودي رجل التحولات الفكرية

د. حذام بدر

الفيلسوف، الذي حلم في مقتبل حياته بوحدة الأديان الثلاثة (المسيحية واليهودية والإسلام)، يصف نفسه بأنه (دون كيشوت) يناضل ضد (طواحين الهواء) الرأسمالية. إنه المفكّر روجيه غارودي، الذي رحل في يوم الثالث عشر من حزيران الجاري مُنهياً ٩٨ عاماً من التحوّلات الفكريّة.

لقد رفض الحداثة الغربية وحملها تبعة ما يشهده العالم اليوم من قهر وتفكك وعدمية وكوارث، آثر غارودي الخروج مرتدا إلى زمن البدايات الدينية، فهو يعد خلاص البشرية في إحياء اليهودية والمسيحية والإسلام من منابعها الأولى، ولا ينسى البوذية التي يعدها واحدة من الهبات الروحية الكبرى التي بها بلغ الإنسان عتبة إنسانيته ، وهو فضلا عن ذلك لا يتخلى عن العمل على تعويم الماركسية التي وعدت الناس بتحقيق الفردوس على طريقتها.

المفكر الفرنسي الراحل روجيه غارودي نستطيع وصفه برجل التحولات الفكرية، فقد عودنا على المفاجآت سواء في مؤلفاته أو في خياراته العقائدية وطريقة التعامل مع هويته الفكرية، كانت أول تحولاته خروجه عن الماركسية، التي قضى شطرا كبيرا من حياته منظرا وقائدا فيها، وهو لم يغادر الماركسية ليتبنى المذهب الليبرالي بل ليختار الإسلام ويتبنى شريعته الأولى بوصفه مشروعا للحياة ودعوة لخلاص البشرية الدنيوية قبل الآخروية، كما عبر عن ذلك في كتابه "وعود الإسلام" الذي صدر في مطلع ثمانينيات القرن الماضي.

تنقل غارودي بين المسيحية والماركسية والإسلام الذي كان عنده نهاية المطاف، إلا إنه لم ينكر لا الماركسية ولا المسيحية، بل كان اختياره "أي للإسلام" ليتسنى له عمل تركيبة تتيح له أن يستبقي من كل دعوة خلاصتها ومن كل عقيدة صفوتها، وهذا ما أكده بقوله جوابا عن سؤال طرح عليه بشأن سيرته الفكرية المتقلبة: "لو أتيح لي أن أبدا من جديد لما غيرت مساري، بل كنت عاودت الكرة نفسها وانخرطت في التجارب العقائدية ذاتها متمثلة في المسيحية والماركسية والإسلام ".

وهنا تبدو علاقة غارودي معقدة وملتبسة مع كل من العقائد التي آمن بها، فهو يدافع عن تعاليمها الأساسية وقيمها الأصيلة وأبعادها الإنسانية، إلا إنه في الوقت نفسه ينتقد توظيفاتها السياسية والإيديولوجية ويحمل بعنف على المؤسسات والحركات التي تدعي النطق باسمها، فهي –على حد تعبيره – تخون تعاليم المؤسس الأول وتحول الشرائع الحقيقية إلى خرافات وأضاليل أو إلى أنظمة للهيمنة والتسلط والاستعباد.

طرد غارودي من الحزب الشيوعي الفرنسي لأنه أول من تجرأ على القول: بأن الاتحاد السوفيتي ليس بلدا اشتراكيا، وهو لم يخرج عن المسيحية لأنه فقد الإيمان بها بل هاجم الكنيسة لأنها أقامت "تيولوجيا للسيطرة" ولم تكن وفية لتعاليم المسيح.

وهو أيضا يعد النزعات الإسلامية الأصولية تخون الإسلام وتشوه تعاليمه، كما يظهر ذلك في كتابه "الإسلام" داعيا إلى إحياء الشريعة على حقيقتها، ويعلن حربه على الأصوليات الدينية باسم الوفاء للشرائع الحقة والبدايات العظيمة المنتهكة فكرا وممارسة لدى الأتباع.

وهو في هذا كله يمارس عمله كمفكر وفيلسوف فموقفه في قراءة الإسلام موقف مفتوح بعيد عن الانغلاق والاستعباد، وهو ينظر للأمر بكونه رؤية إلى المرجع المقدس والنموذج التام والنظرية النهائية لدى كل عقيدة ممكنة.

كتابه الأخير "الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية" ينسف بها أسطورة المحرقة التي تعرض لها اليهود إبان العهد النازي في ألمانيا، ومشككا بالرواية اليهودية المعتمدة سواء من جهة الأرقام أم سرد الوقائع إلى جهة تفسير الحدث وتأويله.

ففيما يتعلق بأرقام الضحايا البالغة نحو ملايين يعد غارودي الأمر لا أساس له من الصحة، بل هو رقم خيالي تحول إلى أسطورة وظفها العقل الصهيوني للتأثير في الرأي العام العالمي، من أجل تحقيق مشروع بناء الدولة اليهودية، هذا مع أن غارودي يرى بأن قتل إنسان بريء واحد يعد انتهاكا للبشرية جمعاء.

كانت قضية غارودي الأولى هي حق الفرد في ممارسة التفكير النقدي العقلاني لكل ما يجري في العالم، فغارودي يعد صاحب مشروع عالمي وأراد في كتاب(الأساطير المؤسسة للسياسة اسرائيلية)أن ينتقد الفكر الأصولي ويكون مساهمة لفضح التعمية الإيديولوجية التي تمارسها الأصوليات على اختلاف جذورها وأشكالها.

فالنقد ليس إضعافا للمواقف والذات بقدر ما هو كشف وتعرية وفضح وخروج المرء عن عجزه باختراق الحاجز النفسي المعوق للإمكانات وكسر القالب المعرفي الضيق، فالنقد يفضي إلى امتلاك إمكانات جديدة للحياة وامتلاك قوة للتغيير وهذا ما قام به غارودي على مر السنوات التي عاشها

فوداعا لرجل المواقف ورجل النقد والتحولات.

مـــواجـــهـــات غـــــارودي

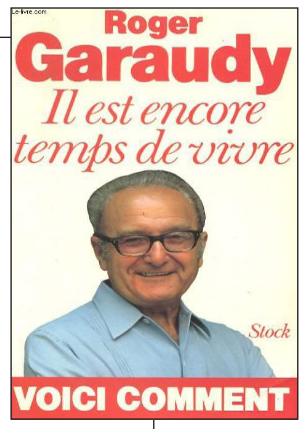

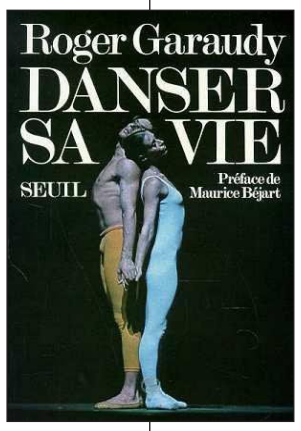

فاضل السلطاني

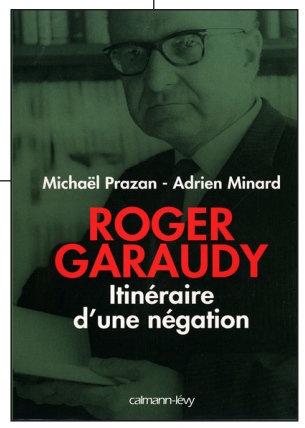

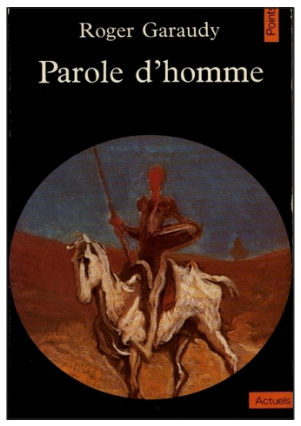

لا يمكن فهم جوهر التحولات الفكرية الكبرى في النصف الثاني من القرن العشرين، من دون الرجوع إلى فكر غارودي. كان وحده كتيبة فكرية، من معركته الكبرى مع الوجودية التي اعتبرها «فلسفة غير إنسانية»، وهو عنوان كتاب له ردا على كتاب سارتر «الوجودية فلسفة إنسانية»، إلى معركته مع بيته الداخلي، ونعني حزبه الشيوعي الفرنسي، الذي كان عضوا في مكتبه السياسي، والحركة الاشتراكية العالمية. كانت معركة مع إمبراطورية فكرية كاملة، ودفع ثمنا باهظا

في وقت مبكر لم يجرؤ أحد فيه على رفع سبابته في وجه من كان يسمونهم آنذاك « المنظرين السوفيات» الذين رسموا سياسات الأحزاب الشيوعية في أوروبا وخارجها من مقاعدهم في الكرملين.. لقد حول هؤلاء الفكر الماركسي إلى مقولات معلبة أرادوها أن تصلح لكل زمان ومكان، وجعلوا الأفكار تحل محل الواقع، بل أن يستنبط الأفكار من الواقع كما كان يفعل ماركس، أي أنهم، بكلمة أخرى، جعلوا النظرية الماركسية تقف على رأسها بعد أن كانت واقفة على قدميها، وهو عكس ما فعله ماركس مع ديالكتيك هيغل. هذا ما كان يذكر به غارودي دائما، ويناضل إلى جانب بعض رفاقه في الحزب الشيوعي الفرنسي مثل الفيلسوفين هنري لوفيفر ولويس ألتوسر، من أجل تصحيحه بلا جدوى. وفعل ذلك أيضا مع «الواقعية الاشتراكية»، التي أرادها الفكر الجدانوفي أن تكون التعبير الجمالي والأدبي عن الحركة العمالية والفكر الاشتراكي. رفع غارودي صوته قويا تقريبا ضد هذا الاتجاه، الذي يتنافى مع المبادئ الماركسية الأصلية، وحتى مع فكر لينين في ما يخص الأدب الإنساني. لقد أعاد غارودي في كتابه «واقعية بلا ضفاف» الاعتبار إلى كتاب وفنانين صنفهم الفكر الجدانوفي السوفياتي باعتبارهم كتابا برجوازيين صغارا، وبالتالي حظرت أعمالهم في البلدان الاشتراكية مثل فرانز كافكا وسان جون بيريس وبيكاسو، على الرغم من عضوية الأخير في الحزب الشيوعي الفرنسي. استند غارودي في قراءته الرائدة تلك إلى فكر ماركس نفسه، الذي أحب شكسبير، وكان يفضل النبيل بلزاك، على روائي الطبقة العاملة إميل زولا، مثلما كان لينين يفضل بوشكين على مايا كوفسكي، شاعر ثورة أكتوبر/ تشرين الأول، إذ كان هؤلاء ينظرون للعمل الأدبي كقيمة جمالية، أولا وأخيرا. ابتداء من هذا الكتاب، بدأت الهوة تتسع بين غارودي وحزبه الشيوعي الفرنسي المتمسك، كغيره من الأحزاب الشيوعية آنذاك، بالخط السوفياتي، وبما كان يسمى آنذاك «علم الجمال الماركسي»، الذي أساء للأدب كثيرا، كما أساء لماركس نفسه. وبعد معركته الجمالية الكبرى هذه، انتقل غارودي إلى معركته الفكرية مع النظرية السوفياتية السائدة آنذاك في ما يخص مفهوم الطبقة العاملة، والتطور الرأسمالي، والانتقال إلى الاشتراكية ومراحله، وديكتاتوريي البروليتاريا، وذلك في كتابه «منعطف الاشتراكية الكبير»، الذي استخدم فيه للمرة الأولى في الفكر الماركسي مصطلح «الملف التاريخي الجديد». وهو يعني بذلك أن مفهوم الطبقة العاملة لم يعد كما هو في فترة ماركس، وإنما توسع كثيراً خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، والتقدم التقني في البلدان الرأسمالية، فأصبح يضم شرائح واسعة من المجتمع غير مرتبطة بالعمل اليدوي المباشر، وإنما بالعمل الذهني كالمعلمين والمدرسين والمهندسين والأطباء والمثقفين، المنسحقين تحت ضغط رأس المال، والذين يبيعون إنتاجهم الفكري والذهني، كما يبيع العامل إنتاجه المادي تماما.

دفع غارودي كثيرا ثمن هذه الشجاعة النادرة في مواجهة تيار عالمي عارم، وبنية فكرية مترسخة في البلدان الاشتراكية السابقة، والأحزاب الشيوعية المنتشرة في عموم الكرة الأرضية، فلحق به ما يشبه التكفير في أيامنا هذه تحت التسميات الجاهزة آنذاك: تحريفي، برجوازي صغير، معاد للطبقة العاملة، أو مرتد. وهي تهم جاهزة دائما للأسف في الكثير من الأحزاب الشيوعية آنذاك. أدت القطيعة الفكرية والتنظيمية مع الحزب الفرنسي، والمنهج الفكري السائد، إلى ما يشبه الاهتزاز النفسي، فليس سهلا أن يجد المرء نفسه فجأة في العراء بعد أن فقد إيمانه بفكرة ما ملكت عقله وروحه أغلب سنوات حياته. سيسود شعور بخواء فكري وروحي لا يمكن ردمه إلا ببدائل أخرى، وهمية أو غير وهمية. وإذا كان رفيقه ألتوسير، عضو المكتب السياسي للحزب الفرنسي آنذاك وأحد أكبر مفكريه، قد فقد عقله وأنهى حياته، فإن غارودي، الذي لم يكن يستطيع أن يعيش بلا إيمان أو دين كما صرح أكثر من مرة، اختار الصوفية كبديل لم يصمد طويلا. ووجد هذا الرجل، الذي ثار على منهج ستالين، نفسه مروجا لنظرية القذافي العالمية الثالثة! ومدافعا خجولا عن نظام صدام حسين. فقد زار العراق في أوج القمع الفكري والسياسي، وذكر في مقابلة مع تلفزيون بغداد، أن ما يقال عن انتهاك حقوق الإنسان في العراق أمر لا يعنيه، فهو لا يتدخل في الشؤون الداخلية لهذا البلد، وإنه «قابل المسؤولين العراقيين وتعلم منهم الشيء الكثير.»

هي أخطاء كبرى بالنسبة لرجل مثل غارودي، لكنها لا تحجب مسيرة فلسفية وفكرية كبرى ساهمت في رسم مسار القرن العشرين، وستبقى مؤلفات مثل «واقعية بلا ضفاف»، و«النظرية المادية في المعرفة» و«ماركسية القرن العشرين»، و«المنعطف الكبير للاشتراكية» و«الماركسية والوجودية»، و«الماركسية والأخلاق»، و«نحو واقعية القرن العشرين – دراسة حول برناند ليجير»، و«مساهمة تاريخية في الحضارة»، و«الإسلام وأزمة الغرب»، مرجعيات كبرى يحتاج إليها المرء في كل زمان ومكان.

غارودي .. "نظرات حول الإنسان"

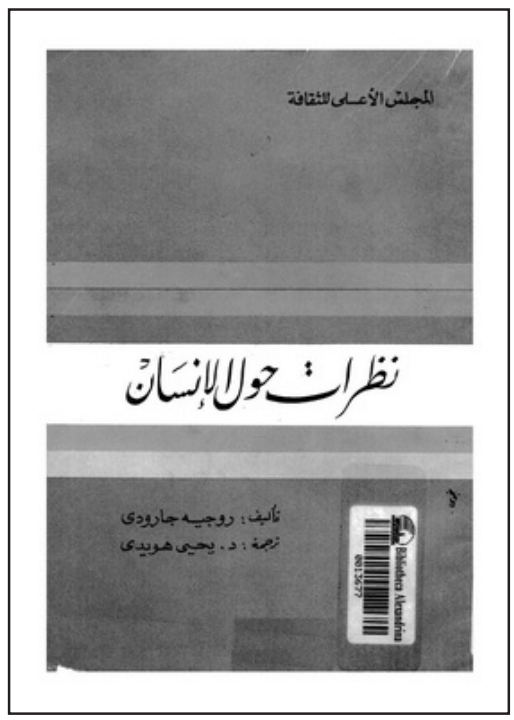

عرض: منارات

قدم لنا المفكر الراحل "روجيه غارودي"، صورة حية لأكثر التيارات الفلسفية المعاصرة، التي جاءت تعبيرًا عن أزمات العصر في كتابه "نظرات حول الإنسان"، حيث عانى العالم بعد الحرب العالمية الثانية، من العديد من الصراعات، التي شكلت مأساة الإنسان المعاصر، وحاصرت الإنسان المعاصر، والعلم الحديث، والحياة المعيشة.

صدر كتاب "نظرات حول الإنسان" عن المجلس الأعلى للثقافة، عام ١٩٨٣، من ترجمة الدكتور يحيى الهويدي، الذي ذكر في كلمته في افتتاحية الكتاب: يقدم لنا في هذا الكتاب نماذج متعددة للإنسانن كما قدمته الفلسفة الوجودية الملحدة، والفلسفة الوجودية المؤمنة، وفي الفلسفة الكاثوليكية، وفي الفلسفة الشخصانية، وفي غيرها من الفلسفات، حيث يضم معًالم الفلسفة الفرنسية في تطورها المعاصر، واشتمل الكتاب على آراء هؤلاء الفلاسفة؛ وفي تطوره الأخير أشهر غارودي إسلامه، وأطلق على نفسه اسم رجاء غارودي.
ظهرت الطبعة الأولى، لهذا الكتاب عام ١٩٥٩، حيث كان يهدف من تقديمه "غارودي" اقتراحًا للماركسية، وذلك لاستيعاب أكثر ما قدمه عصرنا، من إضافات حية حول تصور الإنسان.
والمنهج الذي طُبق في هذا الكتاب، منذ عشرات السنوات كان الأول من نوعه حينذاك، فغارودي، عمل على إجراء "حوار بين الفلاسفة الأحياء"، حيث قام بمناقشة الفلاسفة وأفكارهم، كذلك مناقشة رؤاهم، واعتراضاتهم على أراء غارودي نفسه، وهو ما أتاح للمفكر الإسلامي الراحل انتشارًا واسعًا، باعتبار أن الحوار هو أكثر، ما يميز الحياة العقلية والسياسية.
وفي مقدمة الكتاب، يقدم غارودي شكر خاص للفلاسفة، الذين سيقرأ لهم القارئ في هذا الكتاب، على ما قدموه من نقد، وما أسهموا به من حوار، وهم: "جان بول سارتر، جبريل مارسل، جان لاكروا، تريمونتا وكوينو، هنري والون"؛ حيث أنه يرى أنه بفضل وعيهم، استطاع هذا العمل أن يصل إلى الهدف، الذي سعى إليه وهو إدارة حوار، بين المعاصرين والأحياء، في نظراتهم للإنسان وقضاياه.
تناول الكتاب في فصله الأول، الفلسفة الوجودية، وأصول الوجودية الفرنسية، ومشاكلها ومصادرها الفلسفية، وصولًا إلى محاورها الفكرية، واختص حديثه هنا، عن مسرح وروايات سارتر، حيث اعتبره شاهدًا على العصر، فتحدث عن التطور الفلسفي عنده، ومنهجه ونهجية جان فال، وجان هيبوليت.
جديرٌ بالملاحظة قبل الحديث، عن موضوعات الفصل الثاني، أن الوجودية ازدهرت في ألمانيا بعد هزيمة عام ١٩١٨ وفي فرنسا بعد هزيمة ١٩٤٠، وذلك لأن انهيار النظم الاجتماعية والسياسية، والقومية والروحية التي كانت تقدم، حتى ذلك الحين المقومات لحياة الفرد، ومن الخارج بمعنى من المعاني، قد انتهت بأن جعلت الإنسان يشعر بمسؤليته الشخصية، وبحريته وسط عالم كله أشلاء، حيث كان لشيوع الاضطراب، والكارثة أثره في نشأة أسلوب جديد ذي طابع درامي في الفلسفة المعاصرة، ففي ألمانيا من هيدجر حتى ياسبرز، وفي فرنسا من سارتر حتى جبريل مارسل.
أما الفصل الثاني، فقد خصصه للحديث عن الفلسفة الكاثوليكية، فقد بدأ حديثه بالتحول الفلسفي في الفكر الكاثوليكي، حيث يرى "غارودي" أن الفلسفة المسيحية في هذا الوقت، شهدت تحولًا فلسفيًا حقيقيًا، رغم أنه أتى بصعوبة، ثم يتعرض إلى أعمال الأب "دانييلو" التي عبرت بصفة خاصة، عن القرون الأولى للمسيحية، وبخاصة كتابه عن الأفلاطونية واللاهوت الصوفي.
ويرى أيضًا "غارودي" في نفس الفصل، أن العالم الماركسي والمسيحي والملا إرادي، متفقون جميعًا على أن يخضعوا أنفسهم، لدقة المنهج العلمي، وللدرس الذي تلقنه لهم دائمًا التجربة، حيث أن الواقع الموضوعي، عنده له قوة القانون، ويراه أستاذهم المشترك.

فيلسوف على ضفاف السياسة

■ جمال الخرسان

في قديم الزمان وفي العصر الحديث، هناك فلاسفة غربيون كثر لفتوا اليهم نظر أهل المشرق، لكن جميعهم في واد وما تركه الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي من أثر في نفوس المشرقيين في واد آخر، فمسيرته المثيرة للجدل ومؤلفاته ذات الطابع النقدي والمتزن عن الإسلام، جعلت منه مفكرا مرغوبا فيه بشدة في العالم العربي والإسلامي.

وما توّج ذلك التعاطف الجارف هو محاكمة غارودي العام ١٩٩٨ على خلفية تشكيكه في المحرقة اليهودية "الهولوكوست"، وهذه الأخيرة هي أبرز ما يستحي منه الغرب حكاما وشعوبا، فالسياقات هناك تكفل الحرية بلا قيود، فلا ثالوث مقدسا هناك ولاهم يحزنون، لكن التعامل مع ملف "الهولوكوست" مختلف عن جميع السياقات المتعارفة، ولا يستثنى من ذلك فيلسوف أو عالم في التاريخ، وتلك نقطة ضعف الغرب دون أدنى شك.

لابن مرسيليا الذي ولد العام ١٩١٣، والحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون العام ١٩٥٣، مسيرة حافلة بالإثارة والجدل، وسنينه التي امتدت إلى ٩٩ عاما جعلت منه مسيحيا بروتستانتيا – كاثوليكيا، شيوعيا، مسلما شيعيا – سنيا، مفكرا ناقدا من الدرجة الأولى، لكل مذهب ديني أو سياسي ينتمي إليه. ان غارودي يعرف طريق الفكر والفلسفة والعلوم أكثر مما يعرف السياسة ودروبها المظلمة والوعرة، ولهذا طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي العام ١٩٧٠ لكثرة انتقاداته اللاذعة للاتحاد السوفيتي، إذ أن نزعته للتمرد وروحه المنجذبة للأداء النقدي، لا تسمح له بالتقيد بضوابط السياسة ولا قيود الدين.

على طاولة غارودي توجد مؤلفات كثيرة عن الشرق والإسلام، ومنها تولدت رؤى وأفكار وقناعات جديدة بلمسة المفكر والناقد، وحاول غارودي أن يلقي مزيدا من الضوء على تاريخ هذه المنطقة وبعيدا عن المزاجية، لإبراز الوجه المشرق في الدين الإسلامي. ولا يتردد كثيرا في تكرار حادثة شهيرة صادفته في الجزائر، تعكس شيئا من ذلك "وقعت في معسكر عين أسرار (الجلفة)، حيث كنت جنديا فرنسيا ضمن قوات الاحتلال، ووقعت مع مجموعة من الجنود أسرى في أيدي الثوار الجزائريين، وحدث تمرد من الأسرى الفرنسيين في معسكر الاعتقال، فأمر قائد المعسكر بإطلاق النار على المتمردين، وكانت السرية الجزائرية المكلفة بإطلاق النيران من المسلمين، وفوجئت بهم يرفضون إطلاق النار على الأسرى وأنا معهم، وسألت قائد السرية: لماذا فعلوا ذلك؟ فقال لي: لأننا مسلمون، ومن العار أن نطلق النار على أسير أعزل لا سلاح معه".

جرأة الرجل وشجاعته الملفتة، تسعفه ايضا كي يوجّه نقدا لاذعا لكثير من السلبيات التي تعيشها الحواضن الإسلامية. في ذات السياق قد أنسى له كثيرا من الوقفات العلمية المستصرخة للنهضة المشرقية، لكني لن أنسى أبدا مقولته الشهيرة "الحوار هو الذي يعترف بالجميع ولا يلغي أحدا، الحوار الذي يؤمن بأن هناك شيئا لدينا يمكن تقديمه للآخر، وهناك شيئا عند الآخر يمكن أخذه منه، ولكن البؤس الثقافي والتعنت السياسي الموجود في العالم الإسلامي، يمنع من وجود نماذج مضيئة تستطيع استيعاب الجميع وتقديم حلول لمشكلاتهم".

صدقت ايها الغارودي الفيلسوف

أتيحت لي في العام ١٩٨٣ فرصة اللقاء الأول بالمفكر الفرنسي الشهير رجاء غارودي، كان ذلك في قاعة إفريقيا بإمارة الشارقة، بدولة الإمارات العربية المتحدة، حيث ألقى محاضرة استعرض فيها تحوله الفكري من الكاثوليكية فالماركسية إلى الإسلام.
وبعد ١٧ عاماً، أتيحت لي فرصة أخرى هي الحوار المباشر مع غارودي، رحمه الله
وخلال تلك المرة، أجريت مع المفكر الكبير حواراً مطوّلاً، امتد على جلستين في مقر إقامته بفندق الرشيد ببغداد حينها.
وكانت الحصيلة هذه السطور..

المفكر الفرنسي رجاء غارودي:

علينا أن نؤسس مجتمعا متناسق هارمونياً

بوعي إنساني وإرادة حرة، اتخذ الفيلسوف والمفكر الفرنسي البارز رجاء غارودي قراره الحاسم بالوقوف مع أصدقاء التحرر والتقدم في الإنسانية.
والميزة الحقيقية لهذا الاختيار انه جاء في وقت عصيب، اشتدت فيه الهجمة الاسرائيلية ضد أحرار العالم، واستشرى فيه ذلك الصراع المجيد بين النزوع الإنساني نحو الحرية والتقدم والوعي من جهة وبين الطغيان والقهر والاستلاب والهيمنة من جهة أخرى، لكن غارودي تمكن من تجاوز كل العوائق والمصاعب التي تواجه المفكر الحر وهو يبحر في هذا المركب الصعب.
ولعل الميزة الأخرى الأكثر بروزا في هذا المقام إن الرجل بقي مخلصا أمينا صادقا لخياره الحر المستنير هذا، في الوقت الذي حار فيه آخرون من كبار المفكرين في العالم، وليس ذلك وحده، بل إن غارودي الذي تنقل عبر رحلة فكرية مترامية الأطراف امتدت لأكثر من ٦٠ عاما بين اليمين واليسار وبين التحريفية واليسار الطفولي بقي متوثب الفكر، مؤهلا لاستيعاب كل مشكلات العصر، ومؤهلا للتطور عبر منحى تاريخي يقدم صورة رائعة للتطور الحي بعد التحولات الكبرى التي شهدها مسار الأفكار في هذا العصر.
ومن خلال جهد معرفي وفي تجربة كيانية قاسية وصارمة وصادقة انتهى مفكرنا إلى أن الحضارة الإنسانية تقف أمام امتحان عسير، ومع أن كثيرين بين المفكرين الأحرار المستنيرين أدركوا ذلك أو استشعروه، الا انهم لم يجرءوا على الخروج من أطر وحدود منظوماتهم الفكرية، غير أن غارودي انسجم مع فكره الحر المتجدد والمتطور، فبدأ من إشكاليات اللقاء بين الحضارات، واللقاء الحي بين السماء والأرض، وتأمل الصيرورة المتجددة للإنسان.
لقد كان شاهد صدق على العصر كله، بآماله التي لم تر النور، وبآلامه الطاغية، بالخير الكامن فيه، وبالشرور المحيطة المستفحلة، وكانت تجربته الصادقة في تحوله الفكري لوضع أسس الحوار بين الحضارات، حتى توصل – بعد كل ذاك – إلى أن الحل الإسلامي هو الأمثل لكل مشكلات العصر وآلامه وأزماته، وهو وحده القادر على الإجابة الأمينة لما يطرحه العقل البشري من أسئلة، ومن هنا كانت دعوته لحوار الحضارات، وتأكيده على انه من هناك يبدأ أمل الإنسانية حوارا لا صراعا.
في زيارته الأخيرة لبغداد التقيناه، وطفنا معه في جوانب مما يشغل باله اليوم، ومن بغداد عبّر غارودي عن سعادته لوجوده فيها ثانية بعد مرور ١٠ سنوات حيث زارها مع بداية حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ثم سجن ثلاث سنوات بعد عودته منها.. وهو الآن يبدأ من الصفر تجربة الكتابة والنشر والإعلام، فبعد (٥٥) كتاباً، ومشاركات في الصحافة والحوارات التلفزيونية بلغت المئات، غير أن كتابه الشهير (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) وزع في جميع أنحاء العالم بعد أن ترجم إلى ٣٣ لغة عالمية.
وفي الحوار الذي أجريناه معه تحدث الأستاذ غارودي عن الإسلام، وعن الصهيونية العالمية، عن الولايات المتحدة وانفرادها بالعالم، وقبل كل هذا أدان الممارسات

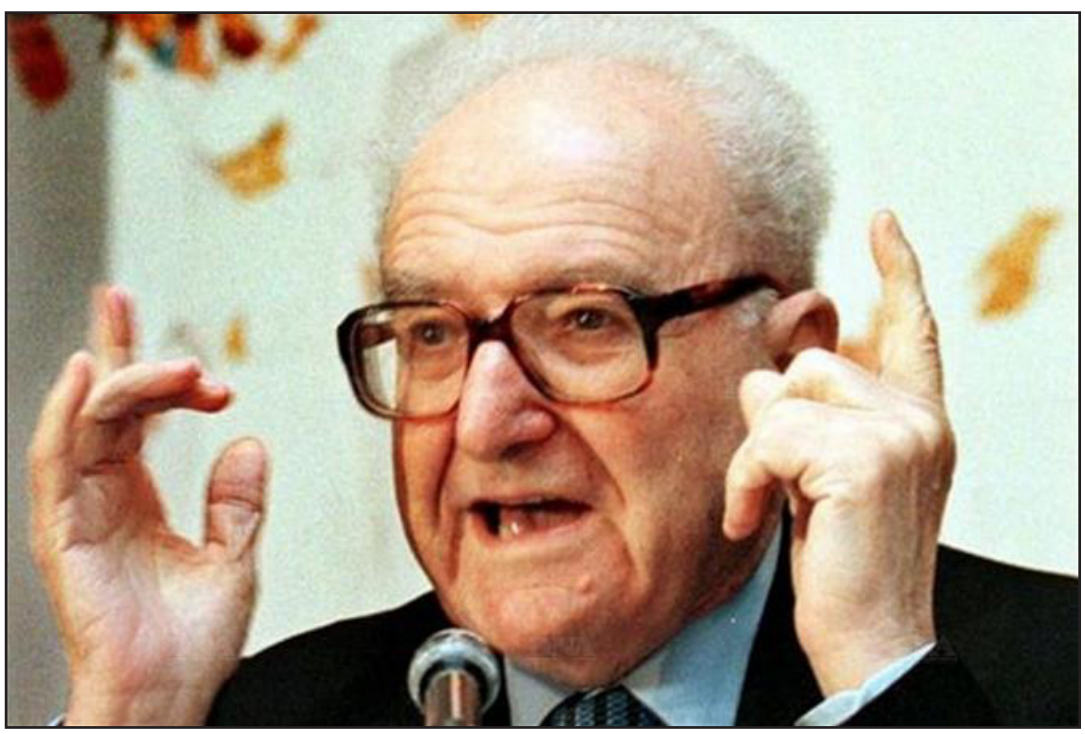

يجب أن ندعم القضية الفلسطينية

الاسرائيلية الوحشية في فلسطين، وسخر من إعلان السفاح إيهود باراك (أوقفوا العنف) في الوقت الذي قتل فيه نحو ٢٠٠ فلسطيني وجرح الآلاف منهم، مؤكداً بأنه يجب أن ندعم القضية الفلسطينية بكل قوة وبجميع المجالات، وكان هذا الحوار...

■ من خلال تجربتك في كتاب (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) هل تفسر كيف استغلت الصهيونية شعور الغرب المسيحي بالذنب؟

– استثمرت الصهيونية عقدة الذنب عند المسيحية لتمرير أهدافها السياسية ومصالحها الاستعمارية والإمبريالية، وهي أساساً أسطورة، وليست حقيقة مثل كل الأساطير الموجودة، ويجب أن نفرق بين الصهيونية كحركة سياسية وبين اليهودية كدين، فالصهيونية حركة سياسية استعمارية تهدف إلى امتصاص دم الشعوب ونهب خيراتها.

الأسطورتين الرئيستين التي اعتمدتها الصهيونية في بناء دولتها قائمة على فكرتين، الأولى: هي أرض الميعاد، والثانية: هي الشعور بالذنب عند الغرب المسيحي، فالرب الإسرائيلي وعدهم بهذه الأرض كوطن لليهود، والدول الاستعمارية وعدت اليهود بهذه الأرض.

الحقيقة إن قصة هذا الكيان بنيت على أساس عنصري بالضبط مثلما جرى في الولايات المتحدة عندما ذبحوا الهنود الحمر من أجل الاستيلاء على أرضهم، الصهيونية العالمية قامت بنفس الشيء عندما ذبحت الفلسطينيين وأبعدت ثلاثة ملايين عربي إلى الخارج وهي الآن تحتل أرضهم، والصهيونية بالأساس حركة علمانية ملحدة ومؤسسها هرتزل يعتبر ملحدا وليس يهودياً، حيث اعترف بنفسه بذلك كما اعترف بأن تطلعاته وأهدافه استعمارية، وكان يهزأ من فلسطين ولم يقبلها كوطن لليهود أولا.

لقد وافق على أنغولا وموزمبيق وجزء من البرازيل، ومن ثم عاد إلى أسطورة أرض الميعاد (فلسطين) وكانت هذه فكرة جيدة لجذب اليهود إلى فلسطين.

الصهيونية ليست حركة دينية بدليل إن وزير الداخلية الإسرائيلي اعترف إن ١٥٪ فقط من اليهود يمارسون طقوسهم الدينية، هذا ويعني إن الـ ٨٥٪ الآخرين يعتقدون إن هذه الأرض منحها إياهم الرب وهم أصلا لا يؤمنون به، هذا هو التناقض الرئيسي في الحركة الصهيونية.

غولدا مائير قالت: من يستطيع أن يحاججنا في هذه الأرض التي منحنا إياها الرب، في حين صرحت بنفسها بأنها ليست مؤمنة باليهودية، هذه هي الصهيونية التي أسست وفق مفهوم (الرب الذي لا يؤمنون به).

ما تعليقك على الاعتذار الذي قدّمه البابا باسم

■ المسيحيين إلى اليهود في زيارته الأخيرة إلى الأراضي الفلسطينية؟

– نعم اعتذر البابا وكأن اليهود فقط هم الذين ماتوا في الحربين العالميتين في حين كان هناك أكثر من (٥٠) مليون قتيل، مما هو مؤكد إن القول بإحراق هتلر لليهود كان مبالغا فيه، لقد اخترق البابا يوحنا الثاني عشر تقاليد الكنيسة قبل أكثر من (٥٠) سنة حين قال إن القدس لا تتبع أي دين وإنها يجب أن تدار من قبل المسيحيين والمسلمين واليهود في وقت واحد.

■ كيف ترى مايحدث في فلسطين الآن، هل تراها حربا دينية كما يُورها البعض، أم صراعا بين فكرتين ومشروعين؟

– من المؤكد ان ما يحدث الآن في فلسطين ليست حرباً دينية، إنما هي حرب استعمارية، هي صراع بين مشروع الحرية وبين مشروع الاستعمار بتعبير أدق.

الفكرة الصهيونية فكرة تقود إلى الجريمة والقتل، وهذا لايمكن ان يتماشى مع الذات الإلهية العادلة والرحيمة.

■ ما الذي جذبك للإسلام، وهل عوّضك عن العقائد الأخرى الدينية والسياسية التي كنت اعتنقتها في السابق؟

– باختصار وجدت النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو الوحيد الذي يؤمن بكل الأنبياء، ومن جانب آخر تقبلت فكرة الإسلام لأنه دين أكثر شمولية لكن لسوء الحظ فأن الكثيرين في الغرب لا يرون هذا الجانب في الإسلام، من حيث المبدأ القرآن يتحدث بشكل مسهب عن كل الأنبياء، يتحدث عن النبي عيسى ومريم العذراء بشكل رائع، هذه هي النقطة الأولى التي جذبتني للإسلام.

لقد كان الإسلام ضحية للمستعمرين الفرنسيين والبريطانيين، اقتسموا فيما بينهم هذه الأرض التي كان عليها المسلمين، وهذا ألحق ظلما كبيرا بالمسلمين، وعندما نقارن بين الإنجيل والآيات التي نزلت في القرآن، خاصة تلك التي نزلت في مكة، نجد تقارباً كبيراً من حيث تفسير القران الكريم للأمور الحياتية، النبي عيسى والنبي محمد صلى الله عليه وسلم تعرضا إلى محاولات القتل بنفس الطريقة، لكن النبي محمد صلى الله عليه وسلم عندما ذهب إلى المدينة صار زعيم الأمة الإسلامية.

■ طرحت أمريكا منذ انفرادها بالعالم (سيادة القطب الواحد) نظرية نهاية التاريخ وصدام الحضارات، هل تعتقد إن هذا الطرح يشير إلى المستقبل أم هو تهديد بضرب الإسلام؟

– ما يسمى بالعولمة هو وجه آخر للاستعمار، كان في السابق استعمار فرنسي وبريطاني وإسباني، الآن لا يوجد فقط غير الاستعمار الأمريكي ممثلاً بالنظام الدولي الجديد، وما كان يسمى بالاستعمار الفرنسي والبريطاني والإسباني صار جزءا من هذا النظام، ولأجل أن نواجه هذا الخطر علينا أن نؤسس مجتمعاً جديداً لا إمبريالي، ليس كما تقدمه الولايات المتحدة، بل يجب أن يكون هناك مجتمع سمفوني متناغمٌ هارمونياً، مثلما موجود في الأوركسترا السمفونية، كل عازف يعزف على آلة موسيقية حتى تخرج سمفونية جميلة، أما ما يفعله الأمريكان فهو تذويب لثقافات الشعوب الأخرى، وهذا يحدث بسبب بربرية الولايات المتحدة لأنها مجتمع لا ثقافة.

من هنا فان الفكرة القائلة بصراع الحضارات فكرة خطيرة جداً وتشكل تهديدا للإسلام، البنتاغون طرح فكرة تلاقح مسيحي يهودي يكون موجهاً ضد الإسلام وضد القوة التي تبشر بها الصين في المستقبل.

نعم عندما يتحدث فوكوياما عن نهاية التاريخ فهي اللحظة التي يكون فيه السوق متحكماً بالعلاقات الإنسانية أو العلاقات العالمية، بمعنى ليس الله هو الذي يدير العالم، بل إن فوكوياما يسعى إلى إلغاء فكرة إن الله هو الذي يحدد المستقبل مثبتاً، عوضا عنها، الفكرة التي تقول أن السوق هو الذي يحدد مستقبل العالم ومصيره.

لذلك أدعو إلى بناء مجتمع جديد لا إمبريالي، مجتمع متناغم كما في الجوقة الموسيقية، كل واحد يعبر عن ثقافته مع احترام الثقافات الأخرى وأخذها بنظر الاعتبار.

من نتائج سياسة (تحكم السوق) إن آلاف الأطفال في العالم الثالث اليوم يموتون بسبب سوء التغذية، وحسب إحصائيات اليونسيف يموت في كل يومين عدداً يعادل الذين ماتوا في هيروشيما، وهذه هي البربرية التي يريدون أن تحكم العالم، والآن الإمبريالية تريد أن تفرض أفكارها ومعتقداتها على الإسلام وعلى المسيحية.

يجب إقامة مؤتمر باندونغ جديد يعنى بالاقتصاد أولا

■ أين تضع مفهوم النظام العالمي الجديد إذن؟

– اختراع نظام جديد للعالم ليس مجرد كلمات يجري الترويج لها، كما يجري الان، انه شيء اخر مختلف تماماً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن النظام العالمي الذي تسعى الولايات المتحدة إلى فرضه علينا خطر حقيقي، بكل معاني الكلمة، خطر موجه للجميع، الفقراء والأغنياء على حد سواء، مما يفرض على الجميع ضرورة التصدي له.

انه نظام قاتل لكل قيم الحضارة الانسانية، ولست أبالغ بالقول ان هذا النظام أسوأ ماعرفته البشرية عبر تاريخها، انه إعادة انتاج للنظام الذي قتل عشرات الوف البشر في لحظتين، واحدة في هيروشيما وواحدة في ناكازاكي.

■ لديك الآن مشروع سياسي اقتصادي لمواجهة العولمة، هل يمكن أن تقدم إيضاحات عنه؟

– المشروع الذي أدعو للقيام به وابذل جهودي حالياً من أجله، هو مشروع إقامة مؤتمر باندونغ جديد، باندونغ اقتصادي بالدرجة الأساس دون إهمال الجوانب السياسية.

علينا تنظيم تجمع جديد لدول آسيا وأفريقيا من اجل خلق عملة جديدة لمواجهة هيمنة الدولار الأمريكي على أسواق العالم، لقد كانت دعوة العراق لاستخدام اليورو شرخاً في الجدار المضروب حول الدول الآسيوية والأفريقية، والمطلوب الآن توسيع هذا الشرخ، حتى نواجه هيمنة الدولار الاستعماري.

■ كيف؟

– علينا أن نوجه لأعدائنا ضربات في الأماكن الرخوة، فبالرغم من كل دعاوى الازدهار الاقتصادي في الولايات المتحدة فإنّ هذا البلد يعد الأكبر مديونية في العالم، حيث تبلغ مديونيته اكثر من (٣٠٠٠) مليار دولار، ولأن الميزان التجاري الأمريكي يعاني من خلل كبير فانه لا يستطيع تحمل أي خسارة اقتصادية، وهذا ما يجب علينا استثماره على نحو يجعل الفرصة المتحققة الآن بين أيدينا حقيقية وقائمة بالفعل.

خذ مايجري في فرنسا مثلا، وهي دولة لاتعاني من مثلث الجوع والفقر والمرض، إذا تصفحت في القوانين التي يتم تبنيها في فرنسا، تجدها مصنوعة في الخارج، انها إملاءات الاتحاد الأوروبي أو إملاءات عالم المال في نيويورك.

■ إذن كيف تقيم مفهوم الديمقراطية الغربية؟

– الديمقراطية، بمعنى حكم الشعب لنفسه، لم توجد عبر التاريخ أبداً، انظر الى أمثلة تاريخية عدة من قبيل الثورة الفرنسية، قيام الولايات المحدة، اعلان اسرائيل، الخ.. أين ستجد هذه الديمقراطية الحقة، في الوقت الذي يدعي أصحاب هذه التجارب التاريخية بأنهم ديمقراطيون، بل انهم يقدمون أنفسهم باعتبارهم النماذج الحية للديمقراطية.

■ بعد تجربتك الفكرية الطويلة من الكاثوليكية إلى الماركسية فالاسلام، ماهي نصيحتك للمسلمين؟

– أتمنى أن أرى مسلمين بحق..

■ ماذا تعني بقولك مسلمين بحق؟

– باختصار أعني انهم لايجب أن يكونوا آكلي رماد، أو كما قال فيلسوف السند المسلم محمد إقبال انهم يقرؤون القران بعيون الموتى.

دعمي أصور الأمر بشكل آخر، لأقول تحديداً اننا لايجوز أن ندخل الى المستقبل من بوابات القرون الوسطى، وان نخلط بين الشريعة الخالدة والتشريع المتغير.. الخلط بين ما هو أزلي (الشريعة) وما هو متغير تبعاً للظروف (التشريع) أكبر خطأ يسقط فيه المفكرون المسلمون اليوم، يجب أن ننظر إلى المستقبل بعيون الحاضر المتطلعة إلى المستقبل.

أليست مفارقة ظالمة أنه في ظل الاسلام العظيم تعيش كل الدول الاسلامية اليوم وهي تعاني من الفقر والتخلف والمرض والجوع؟ فيما قدّم الاسلام حياة جديدة، صيرورة جديدة للبشرية كلها.

لايمكن لأحد أن يحتكر الحقيقة الإلهية المطلقة، سواء كان هذا الفرد حاخاماً يهودياً أو شيخ الأزهر او بابا في كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان، لأنه لا أحد يملك هذه الحقيقة سوى الله، ولو أدركنا ذلك فعلاً لتغيرت حياتنا بطريقة مذهلة.

على المسلمين، الأفراد، أن يتذكروا نصيحة القرآن الكريم لهم بأن يعتنوا بأنفسهم، فكل انسان مسؤول عن تصرفاته، كفرد، وأن يترك تقرير الحقيقة المطلقة لصاحب الحقيقة المطلقة.

هذا الحوار نشر في صفحات اضواء مجلة افاق عربية/ ٢٠٠١

على عكس حياته المليئة بالمتناقضات، رحل المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي بهدوء بعد أن ملأ الدنيا نقاشا وفكرا وبحثا، لكن رحيله بقي لغزا لم يعلن عنه الا بعد ثلاثة أيام مع وصية له بحرق جسده قيل عنها فيما بعد بأنها قرار العائلة ولم تكن وصيه وهو ما يطرح تساؤلات عن هذا الاختيار الذي يرفضه أسلام " الحاج محمد رجاء غارودي".

رافق ذلك تغيب أعلامي بدا كأنه مقصود، يفسره أنصار غارودي بانه رد على مواقف الفيلسوف والمفكر ضد الهولكوست، المحرقة التي وصفها في كتابه "الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية" بانها "أكذوبة العصر".

باريس / سعد المسعودي

غـارودي يرحل بهـدوء بعد حياة ضاجة

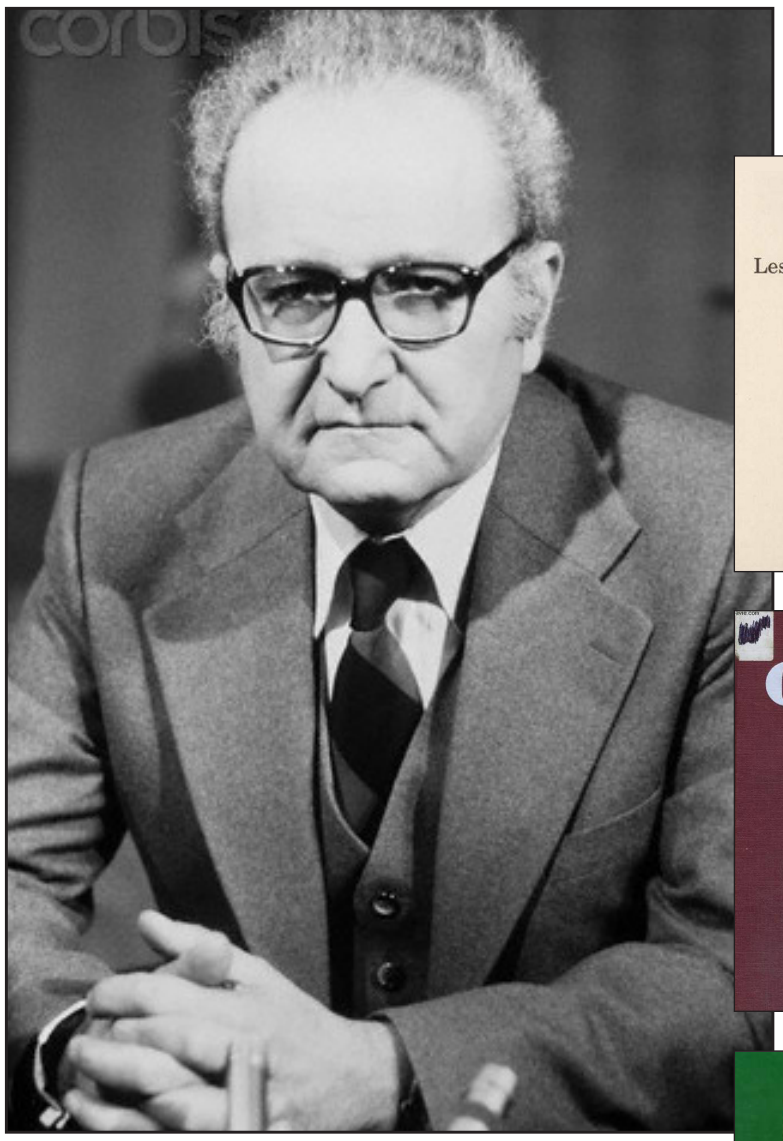

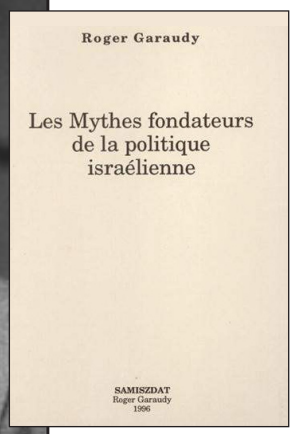

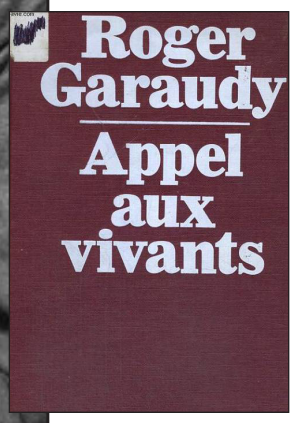

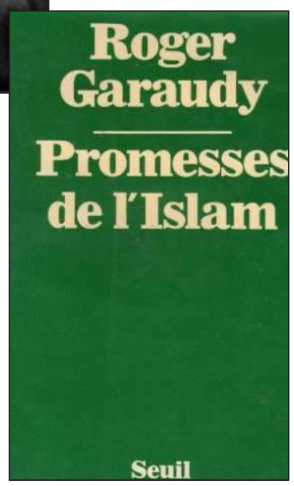

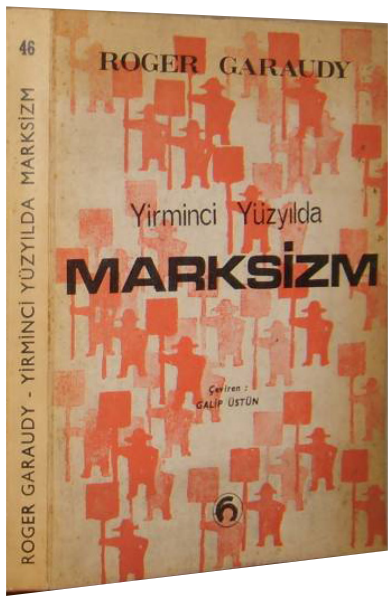

رحل المفكر المثير للجدل عن عمر يناهز ال"٩٨" عاما وهو من مدينة مرسيليا المتوسطية. ولد فيها في السابع عشر من تموز/يوليو عام ١٩١٣ من عائلة متوسطة الدخل حيث كان والده يعمل محاسبا، وكان غارودي يختلف مع عائلته البروتستانتية ويميل الى الكاثوليكية التي هجرها فيما بعد ليعتنق الاسلام في الثمانينات. ومن أشهر كتبه التي قادته الى خوض معارك في المحاكم الفرنسية كتاب "الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية" وبسبب هذا الكتاب، واجه غارودي تهمة التشكيك في ارتكاب جرائم ضد الانسانية، بعدما اثار جدلا واسعا في فرنسا والعالم.

وفي ١٩٩٨، ادين غارودي مؤلف كتاب "الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية" الصادر في ١٩٩٦ بتهمة التشكيك في ارتكاب جرائم ضد الانسانية، بعدما اثار جدلا حادا. ورحب بكتابه المذكور النظام الاسلامي الايراني والزعيم الليبي الراحل معمر القذافي والامين العام لحزب الله اللبناني حسن نصرالله..

المفكر غارودي كان منفتحا على الحوار وداعيا الى الحوار بين المسيحية والشيوعية. ثم أخذ يقترب من الفكر الإسلامي، فأعلن إسلامه في جنيف عام ١٩٨٢. وقد صرح في كتابه "الإسلام دين المستقبل" الحائز على جائزة الملك فيصل عام ١٩٨٥" بأن الإسلام كان أكثر الأديان شمولية في استقباله للناس الذين يؤمنون بالتوحيد وكان في قبوله لاتباع هذه الديانات في داره منفتحا على ثقافاتهم وحضاراتهم والمثير للدهشة انه في اطار توجهات الإسلام استطاع العرب آنذاك ليس فقط إعطاء إمكانية تعايش تماذج لهذه الحضارات. بل أيضا إعطاء زخم قوي للايمان الجديدمن خلال الإسلام. فقد تمكن المسلمون في ذلك الوقت من تقبل معظم الحضارات والثقافات الكبرى في الشرق وأفريقيا والغرب وكانت هذه قوة كبيرة وعظيمة له، وأعتقد ان هذا الانفتاح هو الذي جعل الإسلام قويا ومنيعا.

تقول سلمى الفاروقي زوجة غارودي الفلسطينية عن قصة أرتباطهما عندما التقته في جنيف في بدايات ثمانينات القرن الماضي،الاسلام هو الذي جمعنا. لم أنسى تلك الليلة عندما الح روجيه على حضوري رغم اني تحججت بانني صائمة فتعجب كيف اصوم ونحن في شهر غير شهر رمضان ولكنه استدرجني بحكاياته الجميله عن فترة اعتقاله في الجزائر وعن رفض المسلمين تنفيذ اوامر اطلاق النار علينا ونحن في الاسروقد أوضح لنا احدهم ليس من شيم المسلم ان يطلق النار على مقاتل أعزل من تلك الفترة وانا معجب بالاسلام وبعد نقاش عميق عن الاسلام وبمفاهيمه حينها قلت له أن قضية التوحيد في الاسلام تحتل مكانة كبيرة في كتاباتك ولاينقصك سوى النطق بالشهادتين لكي تكون من هذا الدين الذي اعجبت به، لم يقل شئ في حينها وسافر الى فرنسا ثم عاد بعد ثلاثة اشهر لالقاء محاضرة في جنيف ويدعوني بعد المحاضرة للقاء مهم ومصيري والتقينا في المركز الاسلامي وفاجئني بنطقه للشهادتين وبلغة عربية محببة عندها لم اتماسك نفسي وانهمرت دموعي ولاسيما بعد ان اكد لي بانه اراد ان اكون أول من يسمعها ومن يومها وانا اردد اللهم اعز الاسلام بغارودي"بعدها تقدم لي لاكون زوجة له فوافقت على الفور.

ونتيجة هذا الانتماء إلى الإسلام، أخذ يشكك بالمحرقة اليهودية، فأصبح في نظر الإعلام الغربي معاديا للسامية. واتهم من قبل محمكة فرنسية بانه من المشككين في محرقة اليهود على يد النازية بعد كتابه "الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية" في هذا الكتاب يفكك روجيه غارودي بناءً من الخرافات التي يرى أن عليها قام البناء الصهيوني، وهي الخرافة اللاهوتية الممثلة بالوعد الإلهي بأرض الميعاد، الخرافة العرفية التي تحرم الزواج بغير يهودية ،وان ما اشيع عن غرف الغاز ماهي الا اكاذيب ويستشهد بشهادة مهندس امريكي متخصص كشف زيف قصة تلك الغرف واعد دراسة تحليلية وضح فيها بان المعدات التي وجدت في معسكرات الاعتقال النازية الالمانية لم تستطع ان تقتل فأرا وهي ليست مخصصة لليهود، ،وحكم على غارودي بغرامة ماليه دفعتها دولة الامارات العربية المتحدة.وكانت بحدود عشرين الف دولار.. يقاتل بمفرده

لم يكتف غارودي بفضح الصهيونية واكاذيب المحرقة بل ذهب اكثر من ذلك عندما وقعت مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان، أصدر غارودي بيانا شديد اللهجة ضد المجازر التي أحدثتها إسرائيل في حق اللبنانيين، البيان بعنوان: (معنى العدوان الإسرائيلي بعد مجازر لبنان) وقام بنشره في جريدة لوموند الفرنسية الشهيرة، وقام بحملة جمع التواقيع لاهم الشخصيات الفرنسية ومنهم 'الأب ميشيل لولون' و'القس إيتان ماتيو'، وكان هذا البيان بداية صدام غارودي مع المنظمات الصهيونية التي شنت ضده حملة شعواء في فرنسا والعالم.

أضافة الى اصداره للعديد من المؤلفات القيمة والدراسات الرصينة تتنوع في الكثير من المجالات الفلسفية والفكرية والتاريخية، عن الله والإنسان والمرأة، عن الاشتراكية والغرب، عن الإسلام واليهودية والمسيحية... ومن بينها: النظرية المادية للمعرفة، الحرية، أفاق الإنسان، ماركسية القرن العشرين، الإسلام، مشروع الأمل، في سبيل ارتقاء المرأة، البديل، حوار الحضارات، حفارو القبور، والإرهاب الغربي... وغيرها، وقد ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية.

ألتحق غارودي الحاصل على الدكتوراه في الاداب والمجاز في الفلسفة صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٣ الى الحزب الشيوعي. وفي ١٩٤٠ سجن ثلاثين شهرا في معسكر بالجزائر. وفي ١٩٤٥، انضم الى اللجنة المركزية للحزب وفي ١٩٥٦ الى المكتب السياسي.

وانتخب غارودي نائبا في ١٩٥٤ وخسر في ١٩٥١، واعيد انتخابه في الجمعية الوطنية (١٩٥٦-١٩٥٨) ثم في مجلس الشيوخ (١٩٥٩-١٩٦٢).

وبعدها تولى تدريس الفلسفة في ألبي (جنوب) والجزائر العاصمة وباريس (١٩٥٨-١٩٥٩)، اصبح روجيه غارودي محاضرا ثم استاذا اساسيا في الجامعة.

روجيه غارودي.. آخر المتمردين

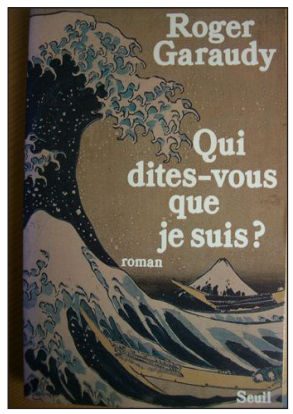

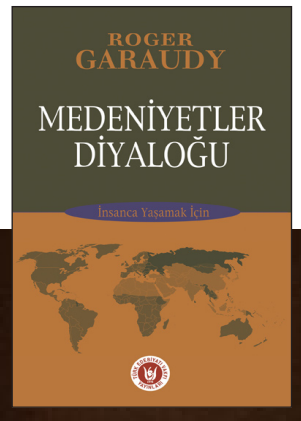

شاكر نوري

علمت برحيل المفكر الفرنسي روجيه غارودي (١٧ يوليو/ تموز، ١٩١٣ – ١٣ يونيو/ حزيران، ٢٠١٢) عن طريق أحد الأصدقاء، وهو يقول لي: «هل سمعت برحيل صديقك؟»، فأصابني الهلع، فقلت على الفور: «من يكون هذا الصديق؟»، قال: «روجيه غارودي». وسرعان ما عادت ذاكرتي إلى الأيام التي كنت أزوره فيه في منزله أو ألتقي به في الملتقيات الفكرية والأدبية. اللقاء بالمفكر الفرنسي روجيه غارودي ليس بالأمر السهل، إذ إن المرء سرعان ما يجد نفسه أمام رجل إشكالي، ترك بصماته الواضحة على عصره. حتى أواخر حياته، كان يتميز بروح متقدة من الفكاهة والنكتة الساخرة، ولم أر مفكرا يتحلى بهذا التواضع وبهذا الأدب الجم الذي ينم عن روح إنسانية كبيرة كما تجسده أعماله الفكرية.بعد عام ١٩٨٢ أصبح جل أصدقائه من العرب بعد أن تخلى عنه غالبية الفرنسيين، خاصة دور النشر. بدأت في تقليب الصحف الفرنسية الكبرى: «اللوموند»، و«الفيغارو» و«ليبراسيون»، وشعرت بالألم يعتصر قلبي لأنها، وللأسف الشديد، لم تقدم رحيله بشكل موضوعي، ولم تأت على ذكر كلمة مفكر وفيلسوف، واكتفت بذكر «المشكك في الهولوكوست»، خاصة بالنسبة لصحف مرموقة يفترض بها التحلي بالموضوعية حيث إن الصحف الثلاث تحدثت عن رحيل «المشكك في الهولوكوست» – المحرقة اليهودية على يد النازية. تقول صحيفة «اللوموند»: «إن موقعا لحركة اليمين المتطرف (المساواة والمصالحة) أول من نشر في فرنسا خبر موت روجيه غارودي»، وليس عن طريق الصدفة أن يروّج هذا الموقع لنجدة النظام السوري. فقد اختفى صاحب أطروحة التشكيك في غرف الغاز الألمانية «الهولوكوست»، حيث إن اختياره المعاكس للغرب منحه شهرة وشعبية في العالم العربي. هناك صحف أخرى سردت ما قالته بعض الشخصيات فيه مثل المثقفين الأردنيين الذين قالوا عنه إنه «أهم شخصية ثقافية في القرن العشرين».

وجاءت صحف أخرى على إدانة فرنسا لمحاكمته. وأخرى ذكرت كيف سددت الإمارات الغرامة المالية التي قررتها المحكمة الفرنسية عليه. وغيرها من ردود الفعل التي يراد بها الانتقاص من شخصيته وفكره الفلسفي.

ولم تقم أي صحيفة فرنسية بكتابة خبر موضوعي إلا القليل النادر، وهذا شيء مؤلم بالنسبة لمفكر وفيلسوف من طراز روجيه غارودي، بل ذهبت هذه الصحف إلى إدانته عند صدور كتابه الشهير «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» الذي حُكم بموجبه بدفع غرامة مالية. فلا يمكن أن تتجاهل هذه الصحف أعماله الفكرية البارزة، خاصة أنها كانت تمتدحه قبل عام ١٩٨٢، السنة التي أدان فيها الاحتلال الإسرائيلي للبنان، ومن هذه الكتب من ١٩٤٩ إلى ٢٠٠٤ «المصادر الفرنسية للاشتراكية العلمية»، و«مات الإله – دراسة عن هيغل ولينين» و«النظرية المادية في المعرفة» و«الحرية» و«آفاق الإنسان» و«ماركسية القرن العشرين.. من أجل نموذج فرنسي للاشتراكية» و«هل يمكن أن نكون شيوعيين اليوم؟»، و«المنعطف الكبير للاشتراكية» و«الماركسية والوجودية» و«أسئلة جان بول سارتر» و«الحرية المؤجلة» و«الحقيقية كلها» و«التاريخ القصير للاتحاد السوفياتي» و«من اللعنة إلى الحوار» و«عدم حتمية التاريخ

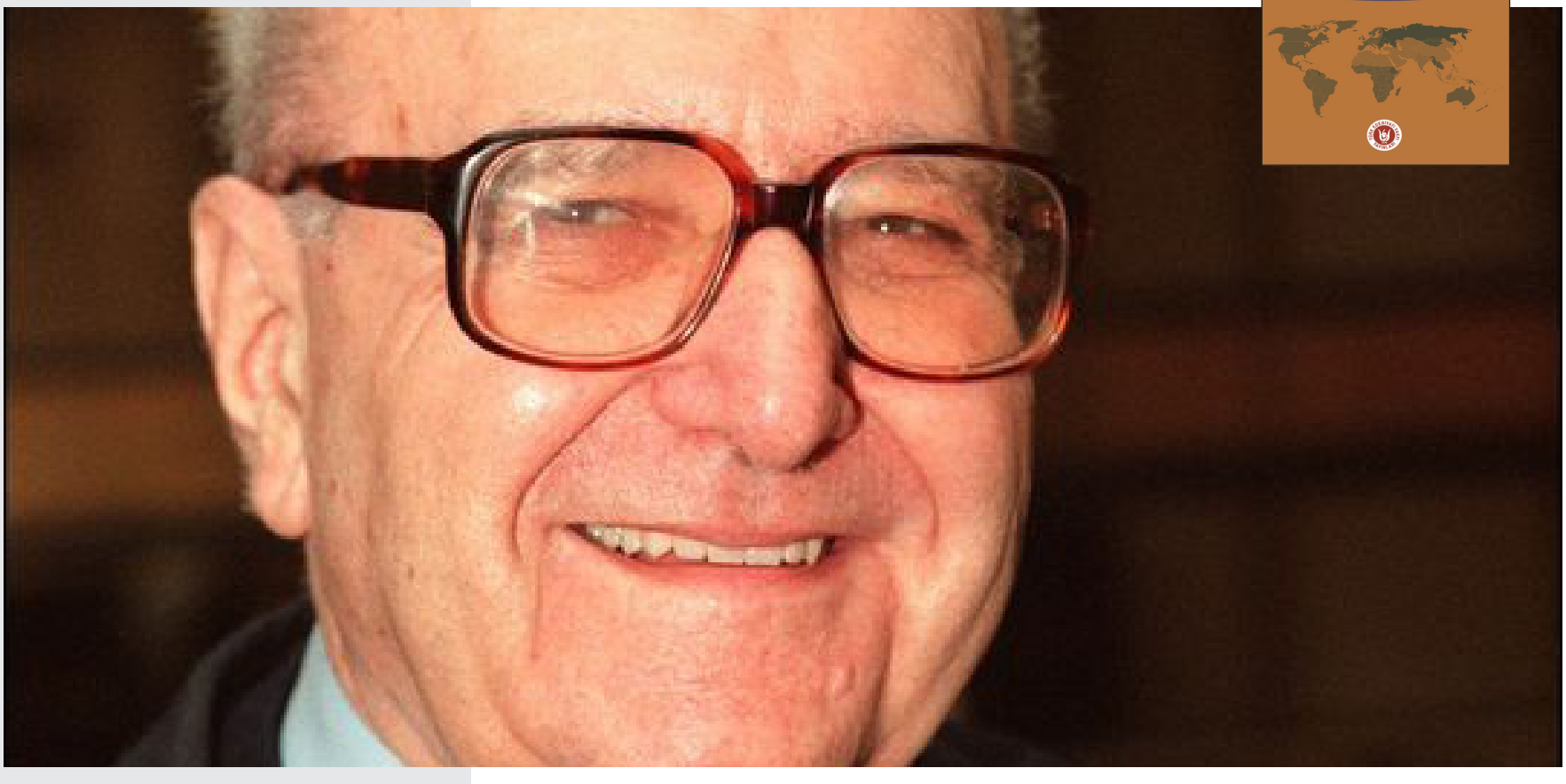

ما هو دين غارودي؟

■ أميـــر الحلـو

من الشخصيات المهمة والغريبة التي قرأت لها وعنها كثيراً الفيلسوف والكاتب الفرنسي روجيه غارودي صاحب المؤلفات الكثيرة ومن أهمها (الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية) وتكمن أهمية كتابه أن الاسرائيليين يتهمون كل من يناقشهم في أفكارهم ومخططاتهم بأنه عدو للسامية في حين أن الكثيرين لا يعرفون بأن العرب من أصول سامية أيضاً ولا أدري كيف يجري إتهام بعض الكتاب العرب بالعداء للساميةِ وهم منها؟

مبكراً عرفت غارودي عن طريق مؤلفاته الماركسية وأعجبتني طروحاته غير التقليدية في الكتابة عن الماركسية حتى أنه (إبتدع) ماركسية القرن العشرين، وكل ذلك باعتقادي سواء كان غارودي أو جان بول سارتر وأخرون هو الفهم الخاطئ للماركسية فهي منهج في التحليل العلمي الذي يوصل الى نتائج جديدة تتلاءم مع روح العصر، وليست نظرية جامدة تصلح (لكل زمان ومكان)، لذلك بدأ الكثيرون بمحاولة تجميلها لتكون منسجمة مع روح المجتمع الجديد وتطوراته، وقد قال غارودي بعد أن وضع سبعين كتاباً مهماً بأن (أشد ما يحملني على الفخر هو تمسكي بالحلم الذي راودني في سن العشرين وهو بحث مشتركات الاديان الثلاثة الاسلام والمسيحية واليهودية) ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصف نفسه في تلك المرحلة من حياته بأنه (دون كيشوت) يناضل ضد طواحين الهواء الرأسمالية.

وكما فعل الكثير من كبار الشيوعيين انتقد التطبيع في تشكسلوفاكيا مما أدى الى طرده من الحزب الشيوعي الفرنسي، فراح يبحث عن مجالات أخرى للبحث والكتابة ومنها الأديان، وخلال تعمقه في دراسة الدين الاسلامي أعلن أنه اعتنق هذا الدين وتزوج إمرأة مسلمة (محجبة) زارت معه بغداد قبل ثلاثة عقود تقريباً.

ومن أكثر الناس عداوة لغارودي هم الاسرائيليين بسبب كتابه (الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية) الذي فنّد فيه الاسس التي برر فيها اليهود إقامة دولتهم الدينية الخاصة.

ان رجالاً رحلوا من أمثال غارودي تعتز بهم الانسانية والثقافة والفلسفة مهما كان رأينا بكتاباتهم و(تقلباتهم) فقد خدموا الفكر وشجعوا على البحث والتطور وعدم الوقوف على ناحية واحدة والبكاء على الاطلال

روجيه غارودي يغلق العصر

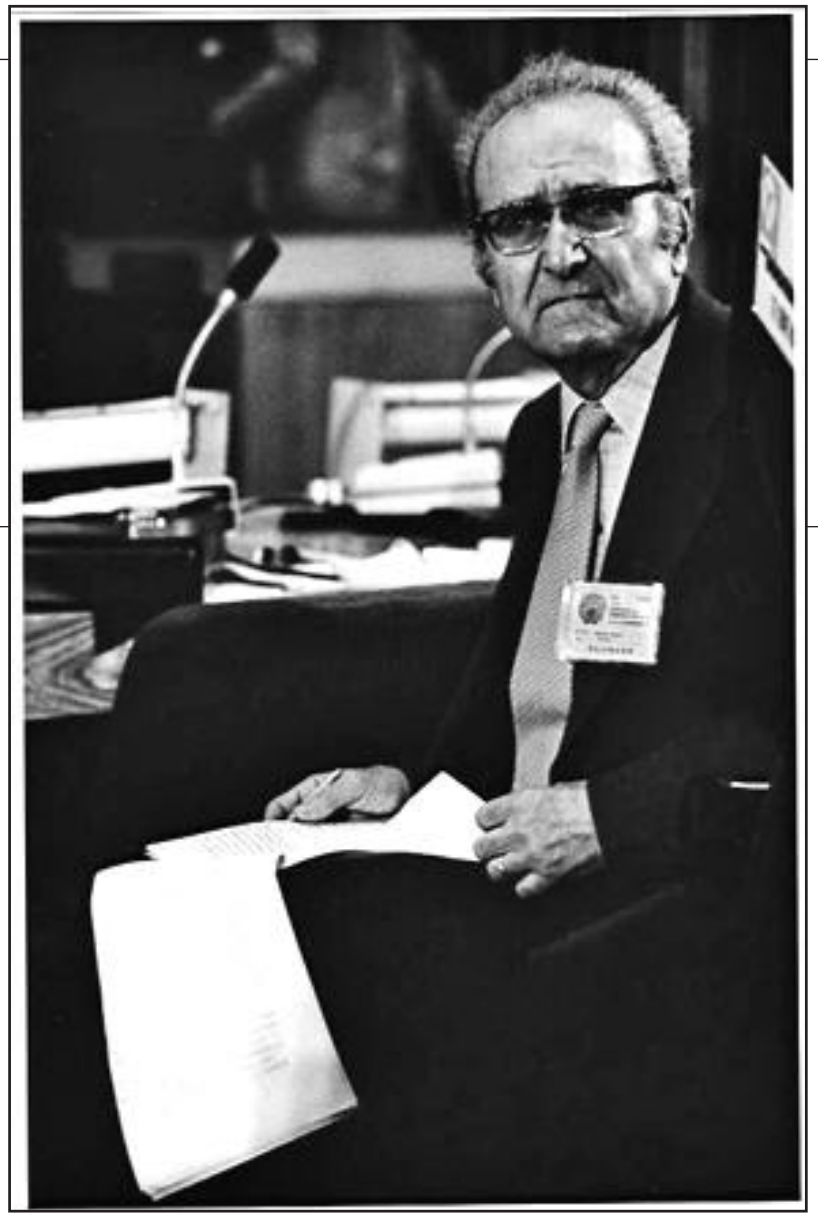

من عام ١٩١٣ إلى عام ٢٠١٢ يكون روجيه غارودي قد عاش قرنا بأسره تقريبا. لقد أغلق العصر تماما. عندما فتحت على مواقع الجرائد الفرنسية للاطلاع فوجئت بأنها جميعها تذكر الخبر على النحو التالي: موت أحد منكري المحرقة اليهودية! كدت أنفجر بالضحك والغضب في ذات الوقت. هل يمكن اختزال رجل عاش كل هذا العمر وشغل العالم بكتاباته ونضالاته السياسية على مدار نصف قرن إلى حدث واحد فقط؟ ألم يفعل في حياته شيئا آخر غير إنكار المحرقة اليهودية؟ وأعتقد أنه لم ينكرها إلا للاحتجاج على الهيمنة المطلقة التي لا تطاق والتي يمارسها اللوبي الصهيوني على الساحة الفرنسية والأميركية والعالم الغربي بمجمله. أو قل بأن كتابه مؤلف من أطروحتين أساسيتين: الأولى صحيحة والثانية خاطئة. تفكيكه للأساطير اللاهوتية القديمة التي استخدمتها الحركة الصهيونية لخلع المشروعية على تأسيس الدولة الإسرائيلية بارع ومقنع. ولكن إنكاره للمحرقة اليهودية إبان الحرب العالمية الثانية على يد هتلر خاطئ.

هاشم صالح

المهم أنه بعد هذا الحادث أسدل على الرجل ستار كثيف من الصمت في فرنسا وعموم الغرب، وقبر حيا لمدة عشرين سنة حتى مات أخيرا. أنا شخصيا لا أوافق على إنكاره لحصول المحرقة النازية الإجرامية. ولا أتفق معه في هذه النقطة أبدا. موقفي بهذا الخصوص هو نفس موقف إدوارد سعيد. لقد حصلت بالفعل. يقول المفكر الفلسطيني الشهير موجها تحذيره إلى المثقفين العرب الميالين بشكل أوتوماتيكي للسير وراء أي شخص ينكر عذابات اليهود ومحرقتهم الكبرى: «ينبغي العلم بأن السير وراء روجيه غارودي وأصدقائه التحريفيين بخصوص هذه المسألة باسم الدفاع عن حرية التعبير ما هو إلا عبارة عن حيلة غبية لن تؤدي إلا إلى فقدان المثقفين العرب لمصداقيتهم أكثر في نظر العالم». وقد صدق. ولكن هل تبرر هذه المحرقة حرق الآخرين أو استئصالهم وتشييد دولة على أنقاضهم؟ هذا هو السؤال الذي لا يستطيع أكبر فيلسوف صهيوني في العالم أن يتجاهله مهما فعل، أو مهما ناور وراوغ.. نعم إننا ضد المحرقة اليهودية وندينها بشكل كامل ومطلق. ولكننا أيضا ضد المحرقة الفلسطينية التي نتجت عنها مباشرة. لو أن روجيه غارودي اكتفى بقول ذلك لما كان هناك أي غبار على كتابه. ولكنه لم يكتف، وإنما راح ينكر حصول المحرقة ويبرئ الغرب من المسؤولية. في الواقع أن الغرب المهيمن المتغطرس هو المسؤول عن عذاب اليهود والفلسطينيين على حد سواء. بل وما الفكرة الصهيونية ذاتها إلا «إبداع» غربي إذا جاز التعبير. انظر كيف يتحدث عنها ساركوزي أو برنار هنري ليفي بشكل عشقي غرامي ويعتبرها معجزة العصر وتحفة الوجود. وبالتالي فقد قدم غارودي هدية مسمومة إلى المثقفين العرب إذ أنكر حصول المحرقة، وللأسف فقد وقعوا في الفخ إلا من رحم ربك..

لكن من هو روجيه غارودي؟ كم من الصعب الإجابة عن هذا السؤال!.. فالرجل من كثرة تقلباته وتناقضاته ضيع البوصلة وحير الجميع. لا يوجد أي تماسك في مساره الفكري أو السياسي، أو قل إنه متماسك من خلال اللاتماسك. فقد انتقل من الكاثوليكية إلى البروتستانتية ومن البروتستانتية إلى الشيوعية ومن الشيوعية إلى الإسلام ومن الإسلام إلى نقد كل الأصوليات المتزمتة.. في الواقع أنه طيلة حياته كلها كان يبحث عن يقين راسخ، عن دين يحميه ويخلع المعنى على وجوده. وهذا ليس شيئا سلبيا بحد ذاته بل إنه مشروع تماما. فهناك قلق وجودي في هذا العالم ويحق لنا أن نبحث عن طوق النجاة مع علمنا بأن النهاية معروفة ومحتومة مهما طال الزمن. وقد طال بغارودي حتى بلغ من العمر عتيا.. يبدو أنه كان يكره دائما الأقوياء والمهيمنين. وهذه صفة إيجابية بحد ذاتها. ففي البداية كان يكره تغطرس الرأسمالية الأميركية على العالم ولهذا السبب أصبح شيوعيا في العشرين من عمره. وبقي لهواه الشيوعي مخلصا حتى تجاوز الخمسين وشارف على الستين. طيلة كل تلك الفترة كان شيوعيا متحمسا. وقد وصل به العمى الأيديولوجي إلى درجة أنه كان يعرّف نفسه على النحو التالي: أنا شخص ستاليني من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه! برافو! مبروك عليك! وبناء على هذا التصريح منحته جامعة موسكو دكتوراه في الفلسفة. ولكن ما قيمة شهادات جامعة موسكو في ذلك الوقت؟ ولكن للحقيقة والتاريخ ينبغي الاعتراف بأن هذا العمى الأيديولوجي لم يكن مقتصرا عليه أبدا. وإنما كان يشمل أغلبية المثقفين الفرنسيين في ذلك الوقت.

هل يشكل ذلك عزاء للمثقفين العرب الذين لا يخرجون من عمى أيديولوجي حتى يدخلوا في آخر؟ لا أعرف. ألم يكونوا متدينين شيوعيا طيلة الخمسينات والستينات وبشكل أعمى أيضا قبل أن ينقلبوا على ذلك لاحقا ويركبوا موجة الحركات الأصولية والخمينية المعاكسة تماما. والآن يريدون إقناعنا بأن الإخوان المسلمين يمثلون ذروة الديمقراطية! في الواقع أنهم انتقلوا من أيديولوجيا دينية إلى أيديولوجيا دينية أخرى. الشيوعية كانت دينا. نقطة على السطر. أين هو الحس النقدي؟ لا يوجد. ولكن إذا كان المثقفون العرب معذورين بسبب ضعف الثقافة العربية وهشاشتها علميا وفلسفيا فإن روجيه غارودي غير معذور على الإطلاق.

هل يمكن اختزاله إلى ذلك؟ لا أعتقد. إنه شخص معقد جدا ومفكر متعدد الجوانب ولا يخلو من الموهبة أو العمق فلسفي. إنه يعرف كيف يثور على الدوغمائية المتحجرة عندما تصبح امتثالية طاغية. ولذلك ثار على الاتحاد السوفياتي بعد أن سحق بالدم ربيع براغ عام ١٩٦٨. وهذا موقف يسجل له وكان السبب في طرده من المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٧٠. وعندئذ أصدر كتابه: «اشتراكية بوجه إنساني». وكان يقصد ضمنا أن اشتراكية الشيوعيين ليست إنسانية وإنما همجية. وكان قد ابتدأ ينقلب على الستالينية التي عبدها سابقا بعد أن اكتشف طابعها الدموي الإجرامي. بل وراح ينقلب على نظرية الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن. وهي النظرية التي فرضوها بالقوة على جميع كتاب الاتحاد السوفياتي منذ أيام جدانوف السيئ الذكر. فكان أن انتهى الفكر والإبداع لمدة سبعين سنة متواصلة في ربوع الشيوعية العمياء. وهذا هو أحد أسباب سقوطها عام ١٩٩٠ لأن الكذبة مهما كانت كبيرة تسقط يوما ما، والحقيقة تنتصر في نهاية المطاف، وكذلك الحرية. لقد نشر غارودي كتابا جميلا في منتصف الستينات بعنوان: «واقعية بلا ضفاف». وهو بمثابة رد قوي على الواقعية الاشتراكية المتحنطة التي تقتل روح الإبداع والفن. لقد اعتمد غارودي على الشاعر الكبير أراغون والرسام العبقري بيكاسو لكي يجدد النظرية الأدبية ويخرجها من قوقعة الواقعية الاشتراكية. وقدم للكتاب بيكاسو شخصيا.

لا أعرف فيما إذا كان التاريخ سيذكره كفيلسوف كبير ولكنه حتما مفكر لا يستهان به. وأعتقد شخصيا أنه بعد خطيئة شبابه الكبرى في الانتساب إلى الدوغمائية الشيوعية وتعطيله لملكاته العقلية طيلة فترة طويلة أصبح أكثر مرونة فيما بعد. بل وأصبح أكثر حذرا تجاه الأيديولوجيات الانغلاقية التي قد تسحرك وتعطل ملكاتك النقدية الإبداعية إذا لم تنتبه لحالك جيدا.. يلومه البعض في الغرب لأنه اعتنق الإسلام ويستهزئون به! ولكن لا أحد يتحدث عن نقده الذكي والعميق للأصولية الإسلامية وكل الأصوليات الأخرى من مسيحية أو يهودية صهيونية أو حتى مادية الحادية. لماذا لا يذكرون كتابه: «من أجل إسلام يليق بالقرن العشرين؟» أو كتاب: «الإسلام والأصولية المتزمتة؟» لماذا لا يتحدث أحد عن كتابه الجميل الذي اكتشفته فجأة يوما ما واستمتعت به كل الاستمتاع: «الإسلام والغرب: قرطبة كعاصمة للفكر البشري؟» ولا أعرف لماذا لم يترجمه العرب حتى الآن؟ في هذا الكتاب يشرح غارودي مدى عظمة الفكر العربي الإسلامي في الأندلس ومدى مديونية أوروبا له. إنه يقول لنا بأن إسلام التنوير كان موجودا وإن إسلام الفقهاء الظلاميين هو الذي قضى عليه في نهاية المطاف. إنه يطالب الغرب بالتواضع والاعتراف بأن العرب المسلمين هم أصل النهضة الأوروبية. وبالتالي فالرجل لم يصبح مسلما بشكل أعمى على الطريقة الانغلاقية السلفية وإنما كان معجبا فعلا بإسلام الأنوار الذي أشع على العالم يوما ما.

إن ما كتبه عن علل العالم الإسلامي الراهن وتحجره العقلي مفيد جدا لنا. وينبغي أن نطلع عليه لكي نستفيد منه ونحاول الخروج من المغطس الذي وقعنا فيه بعد الدخول في عصر الانحطاط، عصر التكرار والاجترار. يا ليت أن هناك مسلمين كثيرين من حجم روجيه غارودي ونوعيته! لو حصل ذلك لكانت الدنيا بألف خير ولكان العالم الإسلامي قد التحق بركب الحضارة منذ زمن طويل.

جريدة الشرق الاوسط
١٨ حزيران ٢٠١٢

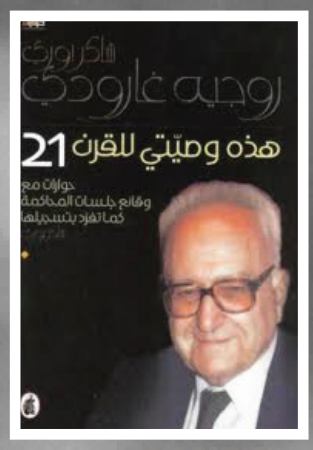

طوت الفلسفة، أحد صفحاتها الرمادية الحافلة، التى امتدت على مدار ما يقرب من قرن كامل، بوفاة الفيلسوف الفرنسي، روجية جارودي، أو رجاء جارودي، كما أطلق على نفسه بعد إسلامه. حفلت حياة جارودي، الذى رحل الأربعاء الماضى فى صمت عن عمر ناهز ٩٨ عاماً، بالتحولات الفكرية العنيفة التى تراوحت بين رؤية مادية للماركسية، إلى أخرى أكثر انفتاحاً على التيارات الفكرية الأخري، إلى مراوحة بين الكاثوليكية والبرتستانتية، إلى اكتشاف الإسلام.

محمد سعد

غارودى.. إسلام بلا ضفاف.. وانحياز للإنسان

بيد أن غارودي الذى لم يكن مجرد منظرأو فيلسوف وحسب، ولكن ربما سياسياً أثار الزوابع حوله، أكثر من كونه فيلسوفاً، اعتنق غارودي إسلاماً بلا ضفاف، إسلاماً منفتحاً ومتسعاً، ويجعل من قراءته الآن درساً فى أن الخطر الفادح والقادم فى تلك اللحظة هو القراءة المغلقة للإسلام.

كلفت آراء غارودي السياسية الكثير ومنها، تشكيكه بالمحرقة النازية لليهود، والتى حكم عليه بسببها بالسجن مع إيقاف التنفيذ وتغريمه آلاف الفرنكات فى عام ١٩٩٧ وقوله أنها من اختراع "تشيرشل" و"أيزنهاور"، "ودى جول"، لتبرير احتلال ألمانيا وتدميرها، وتصريحه فى حوار أخير له بأن هجمات ١١ سبتمبر منظمة من قبل الولايات المتحدة نفسها.

بدأ غارودي المولود عام ١٩١٣ حياته السياسية مبكراً منخرطاً وبقوة فى أوساط اليسار الفرنسى الماركسى بشكل أساسي، خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، والتحق بالمقاومة الفرنسية، ضد المحتل النازى فى الحرب العالمية الثانية.

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية زاد انخراطه فى أوساط اليسار الفرنسي، وإيمانه بالماركسية التى كانت موضة ذلك الزمان بين المفكرين الفرنسيين والغربيين بشكل عام، إذ كان الفضاء الأوروبى منقسماً بين الفلسفة الماركسية والوجودية، بحسب د. على مبروك أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة، والتزم غارودي فى تلك الفترة بالرؤية الستالينية للنظرية الماركسية، وبالنظرية المادية فى المعرفة، والتى كانت تؤمن بالتفسير الآلى والميكانيكى للكون، وتقصى كل ما هو روحانى وإنسانى من اعتبارها.

لم يكن ارتباط غارودي بالماركسية مجرد ارتباط فكري، بل ارتباط سياسي إذ كان عضواً بالحزب الاشتراكى الفرنسي، ووصل فيه إلى مراتب مرموقة، حتى السبعينيات، ولعل تلك النقطة هى إحدى نقاط الضعف التى يأخذها البعض على غارودي، وانعكست عليه سلباً، إذ كان غارودي يعطى الأهمية الأكبر لانحيازاته السياسية، فكان يكتب دائماً والسياسة فى ذهنه، كما يقول د. أنور مغيث أستاذ الفلسفة المعاصرة بجامعة حلوان.

مع صعود خروتشوف للسلطة فى الاتحاد السوفيتى وفضحه لممارسات الحقبة الستالينية والتى انحرفت عن تعاليم الماركسية، ولم تخلق اليوتوبيا الماركسية فى تحقيق الرخاء للطبقات العاملة، بل تحولت إلى ديكتاتورية دموية عنيفة، كلفت الإنسانية أنهاراً من الدماء.

فبدأ غارودي فى مراجعة موقفه منها.

عند تلك اللحظة، بدأت نغمة النقد فى كتاباته للكتلة الاشتراكية فى العلو، فكان كمنظر وكفيلسوف محبطاً ومصدوماً مما آلت إليه الماركسية ليس كممارسة فقط ولكن كنظرية أيضاً كما يرى د.على مبروك، وشاركه فى ذلك عدد من المفكرين الفرنسيين، وأدى نقده للكتلة الإشتراكية لطرده من الحزب الاشتراكى الفرنسى خاصة بعد انتقاده العلنى للاتحاد السوفيتى لاجتياحه تشيكوسلوفاكيا.

أزالت تلك المرحلة الغشاة عن عينى غارودي كما يقول مبروك، واكتشف أنه كان أسيراً لنظرية جامدة، فحمل على عاتقه مهمة إخراجها من أزمتها، التى يعد افتقارها للحس الإنسانى أبرز علاماتها، بحسب مبروك الذى يرى أن ماركسية ستالين كانت تضع الإنسان تحت سطوة المادة بشكل قاس يصبح معه الإنسان مجرد انعكاس لها، ولا كيان له ولا إرادة.

وفى سبيل ذلك بدأ غارودي فى العودة للمسيحية البروتستانتية والتوفيق بينها وبين الماركسية، بحسب أنور مغيث، لإضفاء بعد روحانى عليها، وكانت العلامة المميزة لتلك الفترة هو كتابة "ماركسية القرن العشرين"، والذى انحاز فيه لماركسية منفتحة على كل شيء.

ولكن أنور مغيث يرى أن محاولته لم تكن فلسفية بقدر ما كانت سياسية، ولم تترك أثراً عميقاً لا فى التفكير الفلسفى بشكل عام ولا على النظرية الماركسية، فهو لم يكن من مجددى الماركسية ولكن أحد أهم مفسريها وشراحها.

فى تلك الفترة اكتشف غارودي الإسلام، وسافر لإيران حيث أعلن اعتناقه للإسلام هناك، ولكن الإسلام الذى عرفه أو اعتنقه غارودي لم يكن هو الإسلام الذى نعرفه نحن، كما يرى على مبروك إذ أن الإسلام الذى عرفه غارودي كان إسلاماً بلا ضفاف، إسلاماً منفتحاً متسعاً، كان يستلهم أساساً قراءة المتصوف الكبير ابن عربي.

ويقول مبروك ان اعتناق غارودي الإسلام جعله يدرك أزمة الفكر الماركسى والأوروبى بشكل عام وينفتح على الفكر اللاأوروبي.

يصف أنور مغيث رحلة غارودي مع الإسلام بأنها رحلة مليئة بالتحولات والصخب، بدأت بإعلانه اعتناق الإسلام فى إيران متأثراً بالمذهب الشيعي، ثم تحول نحو المذهب السني، انتقالاً إلى مرحلة أراد فيها التجديد فى الإسلام، وهى مرحلة جلبت عليه الكثير من النقد لآرائه الجريئة والتى طالب فيها على سبيل المثال بمساواة الذكر والأنثى فى الميراث، وهو ما جعل الجماعات الإسلامية التى تحمست له تدير ظهرها إليه.

الدرس الذى نتعلمه من قراءة غارودي الآن برأى مبروك هو أن الإسلام أغنى وأثرى من القراءة المغلقة التى تحاول بعض الجماعات التى يسميها بالأصولية فى ترويجها، كقراءة وحيدة، وأن ندرك أن الإسلام الأصولى والمغلق هو الخطر القادم.

نوع الإسلام الذى انفتح عليه غارودي كان إسلاماً منحازاً للإنسانية، إسلام يستوعب ولا يقصى ولا يطرد وجوهر الدرس هو أن علينا ألا نحيل الأشياء إلى مطلقات يخضع لها الناس

جريدة الاهرام/ حزيران ٢٠١٢

هذا المقال يناقش فيه الفيلسوف العربي الراحل زكي نجيب محمود تحول غارودي الى الاسلام

تلقيت في يوم واحد رسالتين، كلتاهما تستند في سياق حديثها، إلى أقوال قالها المفكر الفرنسي الكبير روجيه جارودي، ولقد قالها في معرض حديثه إلى الناس هنا –في مصر- عن الدوافع التي انتهت به إلى إعتناق الإسلام، أما إحدى الرسالتين فقد جاءت من قاريء يباهي بإسلامه، لكنه – كما رايته – لا يتخلق بأخلاق المسلمين في أدب الحديث وأما الرسالة الثانية فمن شاب أخذته الحيرة، ولم يعد يدري أين يكون الصواب في النظر إلى حضارة هذا العصر وأين يكون الخطأ، على أن الذي استوقفني في الرسالتين معاً، أشتراكهما في نقطة أوردها جارودي في أحاديثه عن إسلامه، فأبرزتاها باهتمام شديد، وخلاصتها هي أن حضارة الغرب في عصرنا هذا، إنما هي حضارة بلا أهداف، وأن الإسلام يمثل الحياة الكاملة التي تعرف أهدافها، فأما صاحب الرسالة الأولى – وهو ذو منصب تربوي كبير- فيسوق لي هذه الفكرة في نغمة التوبيخ على ما أردده من دعوة إلى الأخذ بحضارة العصر، وأما الرسالة الثانية فمن طالب حيران، وعلى أي الحالتين، فالفكرة تتطلب وقفة هادئة متروية نزيهة، لعلنا نرسو بها على نتيجة نطمئن إليها، فهي ليس بالفكرة الثانوية التي لا نأبه لها، بل هي في الحقيقة فكرة محورية أساسية في رسم أتجاهنا الحضاري، الذي شأنه أن يؤثر في كل فروع حياتنا: فكيف يكون التعليم؟ وكيف يكون الاقتصاد؟ وكيف تكون صورة الحكم؟ وكيف تكون كل صورة أخرى من صور الحياة الاجتماعية والحياة الفردية على السواء؟ أنميل بذلك كله نحو العصر وحضارته بدرجة كبيرة أو بدرجة صغيرة بحسب ما يقتضيه كل جانب على حدة؟ أم نغلق أبوابنا ونوافذنا دون العصر وحضارته؟ حتى لا يصيبنا منه بلاء التيه الذي نضرب فيه على غير هدى. إذ هو سير إلى غير هدف معلوم؟

وأغض النظر عن الرسالة الأولى التي أعوذها أدب الإسلام في توجيه الخطاب – وهذا هو أقل ما يقال فيها – وأقف عن الرسالة الثانية، وفيها جاء ما يأتي، مكتفياً منه بمضمون معناه:

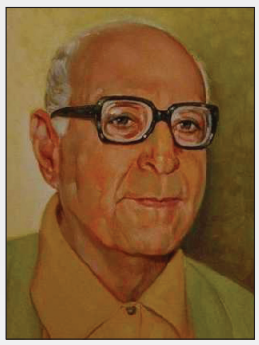

زكي نجيب محمود

زكي نجيب محمود يناقش افكار غارودي

.... إنه لتأخذني حيرة، ويساورني قلق، إزاء ما تدعو إليه من حتمية اللحاق بحضارة الغرب، فها أنذا أقرأ عن الغرب أنه يحيا حياة مادية، كانت نتيجتها حياة اجتماعية تتسم بالاستعباد والسخرية من المجتمع الشيوعي، أو تأخذ طابع المنافسة والصراع في المجتمع الرأسمالي، وأما الأقتصاد فقد أصبح هدفه مجرد تشغيل الآلة، لتنتج هذه الآلة ما تقدر قيمته بملايين الدولارات من أسلحة الدمار، ثم تحول المجتمع إلى مجتمع استهلاكي، يهدف إلى خلق حاجات ثم إلى أشباعها. وبالتالي فقد أصبح الفرد يعيش معيشة حيوان، كل همه إشباع حاجاته، أما الثقافة فهي إما مجمدة وإما مسخرة لخلق نسخ أخرى من مجتمعات تجيء على تلك الصورة الفاسدة، وسبب ذلك هو الفصل بين العلم والحكمة.. وبين الوسيلة والغاية، فالحياة هي لمجرد الحياة، والعلم هو لمجرد العلم... "هذه يا سيدي هي آراء أحد أبناء الغرب، بل أحد فلاسفته، وهو روجيه جاوردي" – ثم يسأل صاحب الرسالة قائلاً: أهذه هي الحياة التي تدعوننا لنلحق بها؟ فأي شيء مما قاله جارودي يغري الإنسان، بأن يحاول خلق مجتمع، تلك هي حياته، وهذه هي نهايته؟

وأبدا قولي بأنني أقدر السيد جارودي تقديراً يرتفع ما ارتفعت مكانته العليا في دنيا الفكر المعاصر، ولم يكن فكره من ذلك النوع المجرد الأجرد الخالي من الروح والحيوية، بل كان فكراً فعالاً مستجيباً للحياة وظروفها، ولم يكن ليتحرج من الأنتقال بفكرة من طرف إلى طرف، إذا وجد أن متابعة الحق – كما يراه هو – تقتضيه مثل ذلك الانتقال، وهذا ما حدث بالفعل، فقد كان شيوعياً ذات يوم، ثم ها هو ذات اليوم يعتنق الإسلام، وبين الشيوعية الإسلام ما بينهما من اختلاف في الأسس المبدئية الأولى.

لكن تقديري للرجل لا يمنعني من ملاحظات أبديها، وأولها أنني كنت أتمنى لإسلامه أن يجيء على أساس "العقيدة" ذاتها، لا على أساس "الحضارة" لأنه إذا كان من الأسباب التي دفعته إلى اعتناق الإسلام، ما وجده من نقص جوهري في "حضارة" الغرب، إذ وجد إنها حضارة بلا هدف، فهي تخلق في الناس حاجات لم تكن بهم من قبل، ثم تعمل بعد ذلك على إشباع تلك الحاجات بما تنتجه الآلات. دون أن يؤدي ذلك إلى الارتقاء بالإنسان من حيث هو إنسان، فماذا لو لم يكن في حضارة الغرب مثل هذا النقص؟ واضح أن النتيجة هنا هي أن لم يكن جارودي ليجد ما يدعوه إلى إسلام، والملاحظة الثانية – هي أن المفكر الفرنسي الكبير، حين هاجم حضارة الغرب بما هاجمها به، فإنما كان في ذلك مسلحاً بثقافة الغرب ذاته، ومثل هذا الموقف المنطوي على مفارقة، كثيراً جداً ما نراه عند أعداء العصر وحضارته، فنجد الواحد منهم – مثلاً- يلعن حضارة الآلات، لكنه يوجه تلك اللعنة من إحدى الآلات التي يلعنها: من تلفزيون- راديو-أو أية وسيلة أخرى من وسائل العصر.

إنه لا بأس يا سيدي في أن يصيح مفكر فرنسي كبير صيحة الغضب من العلم الحديث وما تمخض عنه من آلات، أقول إنه لا بأس في أن يصيح صيحة غضبه تلك في أرجاء الغرب، بعد أن شبع ذلك الغرب علماً وأرتوى بالعلم، لأنه إذا كان ذلك الغرب قد شطح بمعلومه وآلاته حتى أنحرف عن جادة الصواب، فبدل أن ينتج للناس خبزاً أخذ ينتج لهم سلاحاً فتاكاً، فإنه ليس محالاً عليه أن يعود على هدى الصيحة الغاضبة فيلتزم جادة الحق. بعلومه تلك وآلاته، وذلك بأن يبقى على ما ينفع الناس، ويمحو ما يؤذيهم، ذلك كله يمكن للغرب ما دام العلم بين يديه يصنع به ما استطاع أن يصنع، لكن البأس كل البأس يا سيدي في أن توجه مثل تلك الصيحة الغاضبة في بلد ما يزال عند ألف باء العلم والصناعة، لأنك إذا أشعت في نفوس أهله مثل ذلك الترف العقلي، وأعني به التشكك في حضارة العلم والصناعة – التي هي حضارة هذا العصر – فكأنك أشعت في صدورهم دعوة إلى الجمود، لا بل دعوة إلى العودة إلى الوراء، حيث لا علوم ولا صناعة ولا أجهزة ولا آلات، ولن يحدث لهم عندئذ إلا أن تزداد حاجتهم إلى الاعتماد على الغرب في كل ما ينتجه من علم، وما يصنعه من آلات.

وأنت أعلم مني يا سيدي بأن تلك العلوم والآلات، التي هي أبرز سمة من سمات الحضارة العصرية، ليست كلها شراً على الإنسان، بل إن الكثرة الكاثرة منها إنما هي الخير كل الخير، وماذا تكون تلك الآلات إلا امتدادات لما في التكوين العضوي للإنسان نفسه؟ ففي الإنسان عينان تبصران ولكنهما تبصران إلى مدى تقيده الحديد، أبعاداً وأحجاماً، فهما لا تريان ما بعد بعداً يجاوز الحد – كأفلاك السماء- وهما كذلك لا تريان ما بلغ من الصغر معلوماً، فجاءت آلات الرؤية لتمد أبعاد البصر حتى يبلغ ما شاء الله له أن يبلغه، وأن تزيد من أحجام الكائنات البالغة الصغر، حتى تصبح للإنسان مجال رؤيته، وقل مثل ذلك في حاسة السمع، فلقد جعل الإنسان لنفسه من الرادار أذناً تتأثر بما هو أوهى من دبيب النمل، وإذا كان في خلقه الإنسان رجلان يسير بهما ويجري لينتقل من مكان إلى مكان، فأنظر كم أضاف إلى قدرة رجليه حين صنع الطيارة، بل وبعد الطيارة المألوفة جاء صاروخ الفضاء، وماذا نقول عن أجهزة الفحص الطبي وغيرها وغيرها، إنني لأشعر الآن بغير قليل من الخجل، حين أذكر أمثال هذه الأمور التي أصبحت في محفوظات الأطفال، لكن ماذا أصنع يا سيدي، إذا كانت صيحتك الغاضبة قد أثرت في رجالنا وشبابنا، فكان

من أصداء ذلك ما جاءني في الرسالتين المذكورتين، وأحداهما من عميد لأحدى الكليات الجامعية، والأخرى لطالب في إحدى كليات الهندسة؟ وأعود فأقول: إننا لو كنا شبعنا علماً وأرتوينا علماً – كما شبعتم وارتويتم– لما كان هنالك من بأس فيما قلته عن العلم والحديث وأجهزته وآلاته، لأننا كنا عندئذ إذا ما أدركنا انحرافنا، أصلحنا الانحراف، والعلم وأجهزته وآلاته لم تزل في أيدينا.

لقد أعجبتم الناس هنا إعجاباً شديداً – فيما يبدو– بقولكم إن حضارة الغرب فيها علم للعلم، وآلة للآلة نفسها، ولكن ليس فيها هدف يستهدف العلم وتستهدفه الآلة، وأن إيثاركم للإسلام إنما جاء من كون الإسلام كياناً متكاملاً هدفاً ووسيلة، لكن الناس إذا أخذهم الاعجاب بذلك – وهو اعجاب ظهر في الرسالتين المذكورتين – نسوا أنهم في حياتهم الفعلية الآن ومنذ أربعة قرون على الأقول، أصبحت أمامهم أهداف الإسلام، دون أن يعيشوا وسائلها، فإذا كانت حضارة الغرب قد بدت لك وسائل بغير أهداف، فحياتنا هنا أهداف بلا وسائل وقد كان الأمل أننا إذا ما قويت أعوادنا علماً وصناعة، ازددنا اقتراباً من حياة القوة عند المسلمين الأوائل، فتتكامل لنا الحياة – كما تكاملت لهم – وسيلة وهدفاً. فجاءت دعوتكم يا سيدي لتشكك الشباب في قيمة العلم وقيمة الآلات، كما ترى في رسالة طالب الهندسة التي أسلفتها.

إن التاريخ البشري لم يشهد مرحلة واحدة خلت ممن يتشككون في أجهزة الحضارة كلما استحدث شيء منها، وإني لأتصور الإنسان في العصر الحجري، عندما عرف كيف يقد لنفسه من الحجر سكيناً، لم يخل من رجال يعارضون تلك السكينة، بحجة أن الإنسان قد يقتل بها إنساناً مثله، وينسى مثل ذلك الناقد أنها كلما قتلت بالخطأ إنساناً واحداً، فإنها تكون قد قتلت بالحق ألف ألف من الصيد الحيواني الذي يقتات الإنسان به.

وهكذا تمضي الحضارة قدماً في سيرها، ومع كل خطوة إلى الأمام يظهر المعارضون الناقمون، لكنها تمضي، فانظر إلى صيحات الشعراء في أوربا، عندما رأوا تباشير الانقلاب الصناعي وهي آخذة في الظهور والانتشار، فك أخذهم الهلع والجزع عندما بدأت المصانع تعلو في السماء بمداخنها ولأضرب هنا مثلاً واحداً أسوقه لشاعر انجليزي رومانسي النزعة، متصوف بطبعه، هو وليم بليك، الذي أنشأ قصيدته المعنونة "ملتن" ليقول فيها ما معناه حسرة عميقة على حياة مضت كانت وادعة مطمئنة بإيمانها، إنها لم تكن تعرف وقتئذ إلا المروج اليانعة والجبال المخضرة بعشبها، وهل كانت رسالات الهل إلى أنبيائه لتهبط عليهم وهم في أمثال هذه المدن الجديدة بمداخنها التي كأنها قرون الشياطين؟ ثم أعلن الشاعر في قصيدته تلك عزيمته على الجهاد في محاربة الصناعة الجديدة وآلاتها وأظنني ما زلت أذكر أبيتها التي يقول فيها: أعطوني قوسي الذهبية الملتهبة، أعطوني السهام ورمحي، فلن أكف عن الجهاد الفكري، كلا ولن يرقد سيفي خاملاً في يدي، حتى أعيد إلى بلادي البهجة الخضراء.

ولم يكن وليم بليك هو وحده الشاعر الثائر على الآلات الجديدة وقت ظهورها، لكن قطار الحضارة نفث نفثاته النارية، ومضى يطوي الطريق إلى الأمام، تلاحقه لعنات اللاعنين.

الآلات الحديثة هي نفسها العلم الحديث، فإذا سمعت الناس يقولون إن العلم قد تقدم خطوة، فأعلم أن معنى ذلك هو أن الآلات قد تقدمت تلك الخطوة، وكذلك إذا سمعتهم يقولون عن الآلات الحديثة إنها تقدمت، فأعلم إنهم إنما يقولون بذلك ضمناً إن العلم تقدم، فإذا سمعنا صوتاً غاضباً يسالنا: وماذا جناه الإنسان من علم وآلاته – تقدمت أو تأخرت – فليكن جوابك يا أخي في الوطن، ويا أخي في الإسلام – هو: إن ما جناه إنسان تقدمت علومه واجهزتها هو أن صار إنساناً بدرجة أعلى وغور أغزر، إذا هو قد تفكر في خلق السموات والأرض كما أمره ربه أن يفعل، فكان ان ازداد علماً بالسموات والأرض، ومع زيادته علماً، ازداد إيماناً.

وهنا أبسط القول فيما لا بد أن يضيفه المسلمون إلى حضارة هذا العصر، فيكمل بهم ويكتملوا به، نعم إننا لو تصورنا إنساناً يقضي الحياة على هذه الأرض ثم يمضي بالموت إلى عدم لا قيام بعده ولا قيامة، لكان هنالك مكان فسيح لأسئلة السائلين: وأين الهدف البعيد الذي من أجله أعيش وأعمل؟ أهو لقمة اليوم لأصبح بها قادراً على أداء العمل يوماً آخر؟ ومن هنا نشأ في أهل الغرب ما نشأ من قلق ومن شعور الاغتراب، فهو قلق من غياب الهدف الذي من أجله يعملون، وهو اغتراب لأن الواحد منهم يحس وكأنه انسلخ عن ذات نفسه ليصنع أشياء للآخرين.

وهنا تكون للحياة الدينية قيمة كبرى، لأنها حياة من شأنها أن تقضي على الشعورين معاً: الشعور بالقلق، والشعور بالاغتراب، لماذا؟ لأن الإنسان يعمل طاعة لربه، وابتغاء رضاه، فلا سؤال بعد هذا لماذا أعمل؟ بل ولا سؤال بعد هذا: لمن أعمل؟

إنه إذا كانت المذاهب الفلسفية في العصر المعين، هي أدق ما يصور حقيقة ذلك العصر منظوراً إليها في أعماقها، فمذاهب الفلسفة في عصرنا، بكل تياراتها، تصور الإنسان وكأنه يبدأ هنا وينتهي هنا، ولم يكن منه شيء قبل ظهوره، ولن يكون منه شيء بعد غيابه، فالفلسفة المعاصرة اتجاهان أساسيان، يكمل أحدهما الآخر: اتجاه منهما يصب اهتمامه على "العلم" في بنيته وفي منهجه، والاتجاه الآخر يصب اهتمامه على حياة الإنسان نفسها، أما وهو فرد حر مسؤول، وأما وهو عضو في مجتمع له تاريخ، وكلا الاتجاهين – كما نرى – لا يفسح مكاناً لما هو وراء هذه الحياة بتاريخها الماضي وعلمها الحاضر، إذ هو لا يهتم بما كان من قبل الحياة ونشأتها، ولا بما سوف يكون بعد فنائها، فالذي يجري أمامك على المسرح هو الرواية كلها من فاتحتها إلى خاتمها، وإذن فقد حق للسائل أن يسأل: ثم ماذا؟ فإذا هو لم يجد الجواب، أخذه الشعور بالقلق، وشعور الاغتراب.

لكن المسلمين عندهم في ديانتهم الجواب. فالصورة في عقيدتهم الدينية لما سوف يكون بعد فنائها الأرض وما عليها ومن عليها، صورة واضحة بكل تفصيلاتها، فهنالك البعث والنشور، وهنالك الحساب، وهنالك الثواب والعقاب، وهنالك الطريقة التي يكون بها هذا ويكون بها ذلك، وبكلمة واحدة نقول إن هنالك العدالة بأدق موازينها، أتسألني بعد هذا: فيم الحياة وشقاؤها؟ إذن فالجواب هو: إنك تحيا بأمر الله وتعمل طاعة لله، وسيكون يوم الحساب موعداً لإقامة العدل فيما قدمت يداك، وبهذا تنتفي دواعي القلق والاغتراب وغير ذلك من الحصاد المر الذي تغص به حلوق المعاصرين.

وفي إضافة هذا الجانب إلى حياة العصر، يكون دور المسلمين المعاصرين، إننا لا نرفض العصر، بل نضيف إليه ما ينقصه، وفي هذه الإضافة نفسها يتحقق بالإسلام ما أسلم روجيه جارودي من أجل تحقيقه لنفسه، وهو أن يكون للحياة الدنيا هدفها، لكن تلك الحياة الدنيا لا بد أن نجعلها حياة مليئة بكل ما انتجه العقل البشري من علوم وأجهزة وآلات، وبكل ما انتجه الوجدان البشري من فنون وآداب

من كتاب زكي نجيب محمود
(قيم من التراث)

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
ديار خالد

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

روجيه جارودي
كيف نصنع المستقبل؟

روجيه جارودي
كيف صنعنا القرن العشرين؟
20

روجيه جارودي
امريكا طليعة الانحطاط

روجيه جارودي
إسرائيل
بين اليهودية والصهيونية

روجيه جارودي
الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية

روجيه جارودي
أصول الأصوليات والتعصبات السلفية

نظرات حول الإنسان

لماذا أسلمت؟

فلسطين

النظرية المادية في المعرفة